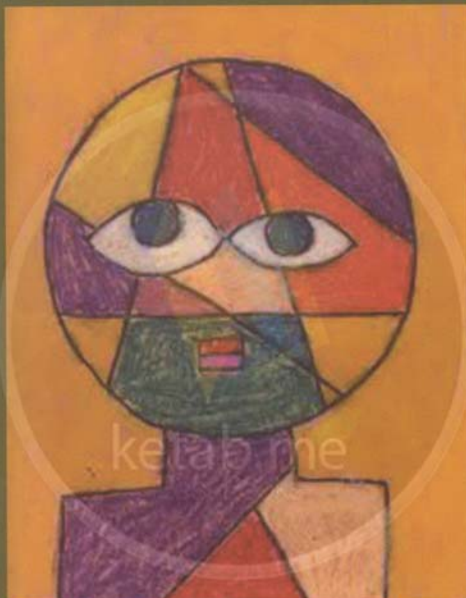


مُعتز قُطّينة

الجنسيّة

A NATIONALITY

التنوير

معتز قطينة

الجنسية

رواية

التنوير

مُعتز قُطّينة

الجنسية

الكتاب: الجنسية/ رواية
تأليف: معتز قطينة
عدد الصفحات: 128 صفحة

الترقيم الدولي: 978-9938-886-09-2

الطبعة الأولى: 2013

الناشر:

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان: بيروت - الجناح - مقابل السلطان ابراهيم
سنتر حيدر التجاري - الطابق الثاني - هاتف وفاكس: 009611843340

مصر: القاهرة - وسط البلد - 8 شارع قصر النيل - الدور الأول - شقة 10
هاتف: 0020227738931 - 00201007332225
فاكس: 0020227738932

تونس: هاتف: 0021674407440
بريد إلكتروني: darattanweertunis@gmail.com

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

(يوم الجسر)

كنا في الصيف لكي نسافر إلى القدس، نذهب إلى عمّان أولاً، قنطرة العبور الوحيدة إلى القدس، نقضي أياماً قليلة بالكاد تكفي لنطمئن على أقاربنا هناك، ومنها ننطلق إلى الجسر! الجسر كلمةٌ مرعبة للصغار، تشبه أن يضعهم أحد في غرفة مظلمة ويصرخ ضاحكا بأعلى صوته بلا سبب، ويستمر في الضحك! إنها الكلمة الأكثر إزعاجاً لطفل في الخامسة من عمره يعرف أنه مضطر لعبوره باتجاه فلسطين، إذ يعني هذا أن يستيقظ في الثالثة صباحاً، ويقطع مسافة ساعتين بالسيارة مروراً بمناطق منخفضة الضغط تسبب ألماً لأذنيه. يا لعذابات الصغار: انسداد الأذنين والنوم القليل، والمزاج العكر بالطبع! لم نصل بعد للعذاب الأكبر، حيث يقف مئات الفلسطينيين، مثل الدجاج، بانتظار إنهاء إجراءاتهم في الجانب الأردني من الجسر، عليك أن تتحمل الروائح المزعجة للناس الذين لم يستحمّوا منذ سنوات، وأن تتغاضى عن أكوام النفايات التي تنثرها قبائل البشر المكوَّمة منذ الفجر عند الجسر، وهناك الموظفون الحكوميون الذين يحملون أبواقاً روسيةً في حناجرهم، ينادون بها على أسماء العابرين وهم جميعا على نفس

الشاكلة تقريبا: يرتدون بنطلونات داكنة، رمادية أو بنية غالباً، ومن ذات القماش الذي يشبه الخيش، قمصانهم مقلّمة، مثل قمصان الفلسطينيين، أو بها مربعاتٌ مبللةٌ بالعرق. إنهم صلعٌ أيضاً، وكلهم سُمرٌ معقودو الحواجب والجباه، ذوو شنباتٍ ضخمة تغطس فيها أنوفهم وتختفي تحتها شفاههم العلوية، مما كان يدهش طفولتي ذلك الوقت هو أنهم أجمعين بلا استثناء يتحدثون بطريقة بعيدة عن التأدّب، لا يحترمون عجوزا ولا يرفقون بطفل ولا يوقّرون كهلاً يعتذر إليهم على قلة تهذيبهم. تتقدّم منه امرأة ترتدي جلباباً كحلياً ثقيلا ومنديلاً أبيضَ فوق رأسها، تستعطفه، كانت تشبه الأمهات. وتطلب منه السماح بركوب الباص الذي استقلّه زوجها ذاته، وحين امتنع بحجة القانون صاحت به امرأة عجوز: الله لا يسامحك لا أنت ولا قانونك! جنّ جنون صاحبنا وأطبق على يدها قائلا إنه يمثّل مقام صاحب الجلالة على الجسر! وأنها بكلامها أنما تسيء إلى الذات الملكية، وأخذ يسحبها نحو أحد مكاتب الجسر لتوجيه التهمة رسمياً، لولا أن اعتذر إليه الواقفون وطلبوا إليه أن يتركها لحالها. وافق بعد أن أذلّها ومسح بكرامتها بلاط الجسر المليء بالفضلات وجيوش الذباب الأزرق، وبعد أن انفجر أبناؤها الصغار في نشيد من البكاء.. صغار الناس يعشقون السلطة حتى لو كانت بسيطة، حتى لو كانت بلا مقابل يستحق، لو دخلت تلك المرأة إلى السجن بالتهمة التي رماها بها، لربما كانت قابعة إلى الآن خلف قضبانه، ولربما تعرضت إلى كافة أنواع التعذيب، والسبب، أن الحاجب المكلّف بمناداة الركاب سمح لنفسه بالنطق باسم أعلى نموذج خَطَرَ له! وأراد أن يشعر قليلا باللذة الملكية!

إذا استطعت بلوغ الباص قبل الساعة الثامنة فأنت محظوظ بلا شك، وستنتظر ساعتين إضافيتين فوق المعبر الآخر، المعبر الحقيقي بين الحدود الأردنية والفلسطينية التي تفصل الموظفين الأردنيين عن نظرائهم الإسرائيليين الذين يبهجنا قدومهم عند الساعة العاشرة. فهذا يعني أخيرا أننا نتحرك باتجاه الضفة الأخرى فوق الجسر الخشبي المتهالك، ونحن ننظر من نوافذ الباص إلى نهر الأردن، الماء الترابيّ الوحيد الذي رأته عيناي. لون غريب وكالحُ، لكنني صرت أكنّ له تقديسا بريئاً، بعد أن أخبرني من لا أذكره، أن هذا هو النهر الذي رُميت فيه الأقلام لاختيار كفيل مريم، قبل أن يطفو قلم النبي زكريا ويظفر هو بتبنّي أمّ المسيح. يبدو أن قدر هذا النهر مرتبط بالأقلام منذ الأزل، فحتى الآن ما زالت توقَّع باسمه الاتفاقيات، وتُعْقَدُ بسببه الاجتماعات والمؤتمرات، فكما كان شاهدا على قرعة مريم، كان شاهداً على كثير مما أنجبه العصر الحديث.

حينما كان الجندي الإسرائيلي ينهي على عجل إجراءات المرور، كانت أمي تؤكد أن الزحام في انتظارنا، ودائما يصدق تأكيدها، لقد احتجت وقتا طويلا لأتجاوز تلك الصور المتراكمة في ذاكرتي عن المهانة التي يتعرض لها الفلسطينيون عند عبورهم إلى أرضهم، وأظنني أتخلص منها تماماً بين ما أذكره عن سويعات الجسر المتكررة: لا بد أن القاعات العملاقة تلك، كانت كبيرة بما فيه الكفاية لتستوعب الأعداد المهولة التي كانت تمر يوميا. أسقف زرقاء يتقشر طلاؤها، ومراوح رديئة للتهوية. مجنَّدون ومجندات ببزات زيتية،

غرف للتفتيش الرجالي ومثلها للنساء. يضع الجميع حقائبهم لتمرّ في الأجهزة الإلكترونية، لتكشف على محتواها. ويخضع الرجال والنساء والأطفال على حد سواء للتفتيش الجَسَدي. أحتاج أن أشرح معنى التفتيش الجَسَدي. لأنه لا يشبه المتداول عن المصطلح نفسه في أذهان العالم: يعني هذا أن تدخل غرفة مساحتها متراً مربعاً واحداً، وتخلع ملابسك بالكامل، عاريا كما سقطتَ من الرحِم! إذا كان الجندي، رجلا أو امرأة، خجولا فإنه سيسمح لك بأن تظل مرتديا سروالك الداخلي، النساء يفتشن النساء، والرجال يفتشون الرجال، ينبشون ملابسك خيطا خيطا، ويمررون على جسدك جهازا كاشفاً، يضعونه تحت إبطيك، وبين فخذيك، بين صدور النساء، وتحت أعضاء الذكور، لا بد أن الشواذ والسحاقيات منهم يبتهجون بعملهم في هذه الوظيفة، فهي توفّر لهم متعة لا متناهية من التغيير، ورؤية أشكال مختلفة في كل لحظة!.. بعد هذه المرحلة تتجه حيث حقائبك (لماذا كانت الحقائب كثيرة؟ أبسبب الهدايا؟ أم بسبب الخوف من الفقر؟ هل كان الناس يتصرفون بدافع الرغبة في الامتلاك؟ أم أن وفرة المال تجعلهم يشترون ما لا يريدونه من البضائع؟!) يتم تفتيش محتويات الحقائب قطعة قطعة، وتتعرض للسؤال عن كل قطعة: هل هي جديدة؟ هل سبق لك ارتداؤها؟ كم دفعت ثمنا لها؟ لماذا اشتريت منها اثنتين؟ هل تنوي أن تتاجر بها؟ هل ستزاول أعمال تجارية بدون أن تدفع ضرائب؟ هل أمك على قيد الحياة؟ لماذا تشتري لعيال أختك؟ هل ترسلون لهم المال؟ هل هذه صورتك؟ هل هذا بيتك؟ إذا كنت تملك المال فلماذا تعود إلى هنا؟ كم معك

من المال؟ أتعلم أنه ليس مسموحا لك سوى بألفي دولار؟ هل تعلم أننا سنصادر هذا الجهاز الكهربائي؟ هذا طعام؟ سنرميه في القمامة لأنه قد يحمل بكتيريا مُعْدية؟ خبز؟ لماذا هو غريب الشكل؟ لا بد أنه اختمر وعشّش العفن فيه.. وبعد عملية تستمر قرابة الخمس ساعات قد تتم مصادرة نصف ما حملته من أغراض، أو تدفع ثمنها مضاعفا ليسمحوا لك بأخذها إذا كنت محظوظاً.

لم تبق إلا ساعات قليلة، فبعد أن تقضي على الجانب الإسرائيلي من الجسر عشر ساعات بين التفتيش والتدقيق والمصادرة لا تصل إلى نهاية الرحلة. إذ حين تستقل سيارة أجرة، ما زلت بحاجة إلى الحظ لتجد شخصا يوافق على إيصالك إلى المكان الذي تريده، فسائقو الأجرة الفلسطينيون نظاميون جدا. هذه النظاميّة ليست وليدة شعب راقٍ، بقدر ما هي وليدة الخوف من القوانين المرورية الصارمة في النظام الإسرائيلي، إذ إن سائق الأجرة لا يستطيع الذهاب أبعد من المواقف العامة لسيارات الأجرة في منتصف البلد، ومنها يمكنك أن تأخذ سيارة إلى بيتك، لكنْ، ما الذي ستفعله حين تصبح الساعة الثامنةُ مساء وسائقو الأجرة ينهون أعمالهم في السادسة من كل يوم؟!

لم أكن أكره فلسطين بعد كل هذا، فهي لا ذنب لها في ما يفعله بي هؤلاء الكبار، كنت أتقافز في المقعد الخلفي لأسأل إن كنا وصلنا إلى القبة الذهبية؟ ما السحر الذي كان يمسّني حين كنت أراها تظهر قليلا ثم تختفي خلف الأسوار الحجرية؟ ثم تظهر مرة أخرى كاملة أمامي، مشعّة بالذهب في حلكة الليل المقدسي. في كل إجازة صيفية كنت

أردد أسماء الأماكن التي أحفظها، حين نقترب: المسجد الأقصى، كنيسة جبل الزيتون، جبل المكبّر، جبل الطور، رأس العامود، كنتُ أحبها جاهلاً ما الذي يدفعني إلى ذلك بعد العناء السنويّ للوصول إليها، فلسطين كانت تعني لي قبةً ذهبية، وأسواقاً وهدايا، وجسراً مرعباً وانتظاراً مقرفاً، فلسطين كانت تعني الجوّ البارد، ورائحة سيارات الأجرة والشجر والجبال التي لا أراها في جدّة، والناس الذين يفرحون بقدومنا. الذين يعرفونني كلهم ولا أعرفهم، الذين يستقبلوننا في بيوتهم كما لو أنهم ضيوفا علينا. فلسطين كانت تعني لي رائحة جدتي المشلولة وحضنها الطيّب ودموعها حتى حين تضحك، والأوقات المليئة باللعب في الحقل أتسلق أشجار التين في الصباح الباكر، وأتزحلق على جبل بطن الهوى ذي الحجارة البيضاء اللامعة، والطريقَ المعبأةَ بالروائح، الخان، وصولا إلى بيت جدي، والحلويات التي لا توجد إلا في القدس، والفلافل، والكعك الساخن الذي لا يشبه طعمه شيئا آخر ذقته في حياتي!

(1)

كنت أتذكر هذه الأحداث في العام الخامس والعشرين من عبوري السنوي للجسر، أتأمله وأنا أعلم أنني ربما لن أراه أبداً. وما تكرر طيلة هذه السنوات قد لا يتكرر. ولا أدري إن كان بمقدوري العودة أم لا، فحضرة الضابطة الإسرائيلية طرحت الخيارات النهائية أمامي، وعليّ أن أقرر بين خروجي النهائي إلى السعودية، أو خروجي النهائي منها. وفلسطين التي أحملها مثل تميمة، خاضعة للخيارات ذاتها. وما زلت جاهلا بصحة القرار الذي عليّ أن أتخذه. والدي الصارم، وأمي التي تحركها الحيرة مثل نحلة، احتفظا بصمتهما مفضّلين أن يتركا لي حرية القرار، رغم تلمحيهما بالرغبة في البقاء!

السور الحديدي الذي كنت أتكئ عليه، يطل على أغوار أريحا. وعلى فسحة البصر، كانت هناك حياة أخرى فوق شواطئ جدَّة الرطبة، ترسل لي أسئلة ضخمة وأحمالاً لم يكن هذا هو الوقت المناسب لاحتمالها، لكن الأشياء حين تأتي باكرا، تكتسب امتداداً في الروح، وتحرِّض الرأس الغرّ على التساؤل: هل هناك معنى لكوني ولدتُ فلسطينياً؟! ألم يكن ممكناً أن أولد إيرلندياً عاقد الحاجبين، وأتحدث بلكنة غير مستساغة؟! كيف عشت كل هذه السنين من دون أن أثبت أنني أنتمي إلى المكان الذي أنا منه: من أين أنا؟ وكيف صرتُ ابن هذه الأرض؟! هل أنا أحب مكاني الذي تشكّلت فيه

أكثر؟ أم أنني أحب المكان الذي حملت اسمَه أوراقي الثبوتية؟ أم أنني أنتمي إلى وهمٍ لم أتعرَّف إليه بعد..! لكنني الآن، وفي هذه البقعة من العالم الذي لَم يتسع إلا ليضيق عليّ ذلك اليوم، فوجئت أنني لن أتمكن من الاحتفاظ بالهوية الزرقاء، التي تمنح المقدسيين حق الإقامة في القدس، وبالتالي فقداننا حق زيارتها، مما شكّل صدمة للعائلة الفلسطينية التقليدية المتمسكة بحلم العودة، وحين لقد قلت لهم بشكل قاطع إنني أنا أيضاً أرغب في العودة، لكن إلى السعودية. يعرفون أنني أحب فلسطين، الناس يحبون الأماكن التي ينتمون إليها حتى لو لم يعيشوا فيها. لا أريد العيش فيها ومواصلة حياتي في أرض تنعتني بالغريب تارة، وبالسعودي مرة أخرى. ولكن، هل هذا يعني أن السعودية لا تطلق عليّ تلك النعوت نفسها؟ بلى، لكنني وإن كنت في جدةَ غريباً فإنني متآلف مع لساني، ووجهي، ومتآلف مع صورة الشوارع المليئة بالحفر أكثر من صورة الجبال التي تحتضن البلدة العتيقة، هل الألفة هي السبب؟ أم أن حبلاً سرياً عميقاً يربط بيني وبين أبعد حبة رمل في السعودية!؟ هذا ليس ذا معنى، فأنا حين طلبت إلى الضابطة الإسرائيلية مهلة لاتخاذ القرار، اكتشفتُ أنني للمرة الأولى أعيش أزمة حقيقية في معرفة هويتي، وأنني أعاني الآن لأني غير قادر على تقديم جواب يريحني على هذا التساؤل. لقد كنت دائما مزيجاً بين اثنين من دون أن أحمل الأمر على محمل الورطة، فالأجنبيّ الذي يعيش فلسطينيا في السعودية، هو ذاته الذي يقضي صيفه السنويّ سعودياً في شوارع القدس!

(2)

لم يكن وارداً أن أقرر البقاء في فلسطين، لماذا طلبت مهلة للتفكير إذاً؟! ألم يكن من الأفضل أن أرحل فوراً من دون إضاعة المزيد من الوقت في انتظار قرار أعرف جيداً أنني لن أتخذ غيره؟

لقد خلقت زياراتي السنوية إلى القدس عالما جميلا، عالما روائيا بامتياز، يشبه الحكايات التي أقرؤها، ولا يمكنني أن أتجاهله بسهولة أو أتجاوزه من دون أن أقف مفكراً في ارتباطي مع هذا العالم الذي يدهشني، فكلما كبرت عاماً اكتشفتُ مساحات جديدة لا أعرفها فيه، وكلما جاء الصيف محملاً بشموسه الوهاجة انتفضتُ أجوب زوايا المدينة العتيقة، المدينةِ السحرية بالنسبة إلى صبيٍّ تمضي حياته بطريقة مختلفة في السعودية، لا أشعر أن إحداهما أجمل من الأخرى، لكل منهما ملامحه وبصمَته، ولي حكايات خبيئة في كل جانب منهما، وكلا المكانين رسم في أعماقي هذا الالتحام الغريب بين شخصيتي المشبعة بجدة، وبين ما تخبئه المفاجآت في صيف الزائر الغريب كل عام، وما تحمله هذه المفاجآت من اختراق لمكوّنات شخصيتي، وأسرتي التي عاشت هناك، في قلب القدس العتيقة، المحاط بالأسوار العالية، والبوابات السبع الكبيرة. يبدأ المشهد الأسطوري حين تخترق باب العامود، وتسلك دربك نزولا إلى المدينة لتشاهد هذا الخليط العمراني الغريب من البيوت والأسواق والدكاكين

الصغيرة، حيث تتكئ الحجارة الضخمة على أكتاف بعضها البعض، وتلتصق زنودها القاسية بما ترامى من أطراف الخانات الضيقة التي تمتد عبر أزقّة المدينة وتبدو كأنها لا تنتهي! يدهشك العشب النابت على الرغم من صلابة الحجارة، وتفوح عطور البهارات والمأكولات النفاذة المنبعثة من خليط السوق، ولا تكاد تميز فيها رائحة الزعتر من الخل، أو الزيتون من الخبز الساخن، لا سيما تلك الخارجة من زقاق (باب خان الزيت)، تسوقك في غيبوبة تتقاطع مع موج بشري لا يتوقف دخولا وخروجا، ويصطدم مرغما بسلال الفلاحات اللواتي يبسطن قطاف الأرض بلونه النَّظِر ورائحته الندية، وترتفع أصوات الباعة والمشترين، فيختلف عليك الأمر بين التاجر والمشتري، ولا تكاد تفرِّق هذه الوجوه الممتلئة بالتفاصيل على اختلاف أعمارها، وبالكاد تمر بين هذا، التشكيلة البشرية عرباتُ الفاكهة والخبز، وصناديق البضائع التي تنتقل من دكان إلى آخر، تسمع دافعيها وهم يصيحون بجميع الأسماء التي مرَّت عبر التاريخ، لينبهوا العابرين خشية الاصطدام بهم، ويزيد الأمرُ صخباً خلاف يشتعل بين اثنين، يصر كل منهما على موقفه فيتعطل تدفق الناس، وليس غريبا بعد ذلك أن تجد أن أكثر سكان المدينة العتيقة سريعو الانفعال و العصبية من دون مبرر. عائلتي ترعرت في هذه الأجواء، أبي الذي ما زال متمسكا بالعودة إلى فلسطين قضى صباه وشبابه هنا، بين هؤلاء الناس الذين يعرفونني بمجرد النظر إليّ، أتذكر ابتساماتهم حين يعلو الاستغراب وجهي بعد أن يتنبأ أحدهم باسم أبي، الذي يقولون إنهم يرون وجهه الشاب في تفاصيل وجهي!

في الأزقة الضيقة تستمع للعجائب، فهذا يرفع صوت القرآن عالياً ليغيظ جاراً يبدأ نهاره بموسيقى أم كلثوم، وكذلك يفعل الآخر، ولا ينتهي جدلٌ أثارته عجوز لأن بائعاً رفضَ تخفيض أسعاره وتصلّب في موقفه لتتحول المسألة إلى عناد واضح من دون أن يتنازل أحدهما عن صرامته. وقد يخطر ببالك أن تخترق (باب خان الزيت) لتذهب إلى (جعفر) صاحب أشهر دكان للحلويات في القدس، لكنك تبدل رأيك حين ترى الناس كأنهم يتدافعون للحصول على أموال مجانية يوزعها ثري مختل، بينما صوت الحقيقة يقول: إنها مجرد حلوى! كما أنه ليس من المفاجآت أن تطربَ أذنيك بالشتائم الصباحية، فلا تبقَ أمٌ ولا أخت من دون أن تُذكرَ بطريقة أو بأخرى!

فوق هذا المكان تحديداً، وبمجرد أن تصعد السلالم الحجرية الكثيرة، تصل إلى حي عقبة البطيخ، الذي تسكن في مدخله عائلة مسيحية مجاورة للعائلات المسلمة في الحي، وإلى يمين المدخل الأول ستجد خمس بيوت متلاصقة تماما لا يعزلها إلا حائط حجري، كأنها بيت كبير اقتسمه ساكنوه بخمس بوابات، يتوسطها بيت جدّي..

تبدأ الحكاية في منتصف القرن العشرين، عام التغريبة تحديدا، العام الذي فصل تاريخ الفلسطينيين إلى ما قبل 48م وما بعده. العام الذي سارت فيه أسراب الفلسطينيين في كل اتجاه من دون وعي بمصير أو تخطيط لمرحلة مستقبلية، ولد أبي في بئر السبع، جنوبيّ فلسطين حين اضطر جدي إلى النزوح بعائلته إثر دخول القوات الإسرائيلية إلى تلك المنطقة، والبدء بتهجير سكانها، حاملا معه أطفاله الستة

وزوجته، كان أبي، وهو أصغر الذكور، رضيعا.. وكانت القدسُ مظللةً بالحكم الهاشميّ، وقد عمل جدّي في وزارة الأوقاف الأردنية إماماً لمسجد صغير، بحكم تمتّعه بالجنسية الأردنية التي سيحملها أبي أيضاً ويمنحني إياها. لقد وفّر له هذا العمل دخلاً ضئيلا لا يكاد يكفي الإنفاق بتقتيرٍ على عياله المتطلبين، ذوي الصوت العالي في مواجهة ضعف الرجل الطيب الذي لم يملك حيلة لشيء في يوم من الأيام، لقد كانت حياتهم ضيقة بكل تأكيد..

الترتيب المتأخر لأبي بين إخوته، والعادات التي سارت في مجتمعهم لجهة فرض هيمنة الكبار وتقديسهم أحيانا، جعلتْ لوالدي منفذاً إلى الصمت، بعيداً عما نشأ عليه أفراد عائلته، فلا هو يزجّ بنفسه في مشاكلهم، ولا يميل إلى أحد ضد آخر، كما جرت الأمور في تلك العائلة التي اتّبعت قانون: إن لم تكن معي فأنت ضدّي! كان مع الجميع وضدهم في الوقت ذاته، الشيء الذي أفسح للبغض مجرى في صدور إخوته، وعلى النقيض، تسليماً بما هو واقع من قبل أمه وأبيه اللذين كانا إلى جوار سلّمه المستمر، لقد أخبرني أفراد العائلة ذات مرة أنه كان الأقرب إلى أبويه، ربما لأنه الأخيرُ بينهم، أو ربما بسبب ما أسقطه عليه إخوته من العسف!

اختارت الأقدار في لحظة من تجلياتها أن تحرمه الشجرة التي يتوكأ عليها، لتنتهي حياة أمه وهو في عامه التاسع عشر، مما خلق مزيداً من التفكك داخل هذه العائلة التي تسكن بيتاً من غرفتين، وسيكون لزاماً عليه أن يبحث عن طريقة أخرى يعيش بها غير تلك

التي يحاول إخوته المتسلّطون فرضها عليه، فيختار، بعد صبرٍ، العملَ في تل أبيب، المدينة الساحلية الناشئة، مؤثرا بذلك البعد عن كل ما من شأنه إحداث المزيد من التوتر. وخلال الأعوام التي قضاها هناك، يتزوج الإخوة جميعاً، وربما لم يتسنَ له أن يحضر كل المناسبات، ليس لأنه لم يرغب الحضور، بل لأن أحداً لم يوجه الدعوة إليه، فلم يكن ضمن قائمة المدعوين إلى احتفالاتهم، وبالتالي سيسقطونه بشكل كامل من حياتهم! يعني هذا أن أحصل على فرصة ممتازةٍ للتخلص من عبء الأسرة التي لم تشعرني بانتمائي لها، كما فعلوا سابقاً مع أبي! آخرِ عنقودهم الذي احتفظ بصَمْته، ولا زال يرفض الحديث عنهم بسوء رغم كل شيء! إنني لا أتحدث عن الكراهية، فالذين يستحقون الكراهية ليسوا بالتأكيد من ذات الدم الذي يترجرج في عروقي!

ما الذي يحدث حين ترمي النرد؟! ببساطة: أنت لا تتوقع النتيجة! ولأن ذهاب أبي إلى تل أبيب وعمله هناك كان رميةَ نرد، فإنه بشكل مفاجئ، كما سبق أن قرر الذهاب، عاد منها إلى القدس، مثقلاً بذكرى أيام كان فيها سيّد وحدته! ومرة أخرى يعود إلى الوصاية المفروضة جبرياً عليه، لكنّ هذه المرة تختلف، فقد سنحت الفرصة لأخيه الأكبر بعد استقلال جميع أفراد العائلة، أن يحتل بيت والده، هو وزوجته وأبناؤه، بالإضافة إلى الأب المغلوب على أمره، فيشير إلى عدم رغبته في استقبال كائن جديد، ويبدأ بتضييق الخناق على أبي، الذي يقضي نهاره في العمل، ومساءه متنقلا من مكان إلى آخر طلبا للهدوء، قبل

أن يعود منهكا آخر اليوم ليرمي بجسده على السرير وينام! ويبدو أن هذه الحال لم تكن تعجب أخاه على الإطلاق، لذلك يقرر فجأة وبدون الحصول على مشورة أبي، أو اعتبار لرأيه، أن يرسله للعمل في السعودية، حرصاً منه على مستقبله كما ادّعى، وأن ثمة العديد من الأبواب التي قد تفتح له، إذ إن أحد أقرباء العائلة المقيم هناك، سيتكفل بتدبير حياة باهرة له، وبالرغم من الاعتراض الشديد الذي أبداه جدّي، إذ إنّ هذا يعني عن يبتعد عنه أقرب أبنائه إليه، إلا أن القرار كان قد اتخذ، وتم ترتيبه في ساعة مكرٍ وَحيلة!

ماذا عن أبي؟! أين هو مما يحاك له؟! لم يكن مختاراً، ولا قانعاً، لكنه سلّم بالتهجير الأخوي لاجتناب النزاع، وأفلتَ العنان لأفكاره كي تأخذ مساراً مغايراً، فيرضخ للأمر ويقبل الخروج، وها هو يقبل، دفعة واحدةً، التنازلَ عن أرضه، وقراره، وحياته، وهدوئه، ووحدته، وروائح القدس العتيقة، مقابل التخلص من تسلط هذا الأخ والعيش في مكان لا يقاسمه إياه ، وربما حدّث نفسه: (لا بأس، سأذهب الآن، وأعمل في السعودية، سأستريح كثيراً من لقياك التي لا تسر، ومن لسان زوجك التي لا تحبني، كما لا أحبها، سأذهب من دون أن ألقي نظرة على مقاهي القدس، لن أودّع شارع صلاح الدين، ولا وادي الجوز، ولا حارة النصارى. لن أسلّم على أحد، ولن أحكي أنني أخرج مرغما، لأنني حين أعود بعد عام أو اثنين يمران سريعا، لن أسلّم عليك أيضا، ولن أكلمك، وحين يسألك الجميع عن ذلك، ستجيب بكل خزي: إنك لم تقصد الإساءة، وستضطر حينها أن تأتي

إليّ، أن تطلب مني السماح على كل ما اقترفته تجاهي. لا أعرف ما الذي سأفعله حينها، لكنك ستستعطفني كثيرا لأغفر لك، قد أفكر بالأمر حينها، وقد أركلك برجلي مثل علبة كولا فارغة!).

قرَّر أن ينفذ خطة أخيه التي لم يشركه في إعدادها، وقد رسم الملايين من الصور والأفكار مما لم يُطلع أحداً عليه، ولن يعلن آماله أمام إنسان، فهو الصامت الذي لا يتحدث، والبئر التي تستودع العالم من دون أن يدري بها كائن! وخلال أقل من شهرين، كانت جميع الإجراءات الرسمية قد تمّت، وغادر إلى عمّان، منطلقا منها إلى الحياة الجديدة، والأرض التي لا يعرفها: جدّة!.. ما الذي كان يعرفه عن السعودية؟ وأي شيء خطر بقلبه؟ لقد كانت السعودية، مثل أي مكان آخر في العالم، مجهولةً بالنسبة للمقدسيين، ولا يرتبط اسمها إلا بالحرمين والذهب الأسود، هذا الذي شدّ الكثير من الفلسطينيين للركض نحو تأشيرة العمل فيها، ودفع مبالغ طائلة لقاء ذلك، لكنّ المقدسيين، على شظف معيشتهم لم يغادروا إليها، رغم كثرة الفرص المتاحة، ليس زهداً في ما ستغدقه عليهم الغربة، ولا حباً في القدس، لكنهم يجهلون كيفية العيش خارج أبوابها التي تشبه الـمَرَدَة، أبوابها السبعة، الحرّاس الضخام، يضيعون إذا اجتازوا أحدها، المقدسيون يشعرون بالأمان داخل أسوار البلدة العتيقة، يظنون أن العالم يبدأ عند حاراتها الصغيرة، تحت عتبات بيوتهم، يتشعب في الخانات والأسواق المكدّسة بالقادمين من كل قرية وجبل، هم سادة البلدة وأمراؤها، والفلسطينيون يهطلون عليهم من كل بقعة طلباً لكل شيء:

للعمل، والتسول، والصلاة على محمد في مسراه، والنوم، والهرب من القتل، والشراء، والاحتيال على السذّج، ولمس مؤخرات النساء في الزحام، والفرجة على أفواج الغرباء الشقرِ الذين يغرقون البلدة ربيعا وصيفاً، وشرب القهوة الطازجة، وقراءة الكف، وإشعال الشموع في الكنائس الباردة والركوع عند ركبتي المسيح في انتظار قيامته، ولعب القمار في المقاهي ذات الستائر المسدلة، وزيارة الأطباء النجباء، ودكاكين الزيت والزعتر،،، يا للمقدسيين! يشعرون بالأمان في البلدة العتيقة، ويظنون أن العالم ينتهي عند أسوارها..! حدثني يا أبي عنك حين غادرتَ القدس: هل نظرت لترى صورة البلدة من خارجها؟ أم أنك منحتَها كتفيكَ والرعب يسكن صدركَ؟!

لقد كان لزاماً عليّ أن أعيد ترتيب هذه الحياة بأكملها واستحضار حدّها الأقصى، ربما ليس لأجلي أنا الذي قررت المغادرة، ربما من أجل أبي الذي استمر في التدخين بشراهة في تلك الساعات، وهو لا يفتأ يردد بصوت منخفض أن الخيرة فيما اختاره الله، وأنّ فلسطين هي الحلم الذي ظل معلّقا إلى روحه مثلما تتعلق أعين المقدسيين بالشورت الذي ترتديه سائحة أجنبية في الصيف!

(3)

لقد كان وقتاً مزعجاً ومملاً، يشبه الدقائق الخمس الأخيرة لفريق تأخر عن خصمه بعشرة أهداف، وما زال ينتظر صفارة الحكم. لكنني أعيش حالة اضطرار، لا يدفعني إليها أحد، وألم ليس باختياري أن أطرده. ومن الذي يستطيع أن يطرد آلاماً لم يخترها!! ليس بيدي إلا اجترار الصور الفلسطينية الصيفية التي كنت أقضيها، من دون أن أتمكن من عقد مقارنة بينها وبين حياتي التي أعيشها في السعودية، فرغم الأشهر الثلاثة الأخيرة التي أمضيتها هنا، إلا أنني عاجز عن فهم التغيير الذي يمكن أن يطرأ على حياتي فيما لو قادتني الظروف، أي ظروف، إلى المكوث هنا إلى الأبد. وعاجز حتى عن التساؤل إن كان باستطاعتي العيش في القدس، أو في ذلك الريف الذي يحزّ عنق المدينة، ريفِ أخوالي. فالبلدة التاريخية هي الجزء المدنيّ الوحيد في القدس العتيقة، ورغم ما تمدّن من حولها، فكل ما يحيط بها ريفٌ، والجزء الأجمل منه هو جنوبها: سِلوان، القرية الفاتنة التي تحتضنك بقوة حينما تلقاك، كما يفعل أهلها، هي التي تقطعها الجبال وتختصرها، وتشتد فيها عروق البساتين وينابيع المياه السحرية، وبعكس المدينة، فإنك لا تسمع صوتاً عالياً يدل على خلاف، فالحكمة سيدة الموقف، وكبار القرية ورجالها لهم القول الفصل في ما ينشب بين الأهالي، حيث يصبح التعدي على أحكامهم خروجاً على قوانين القرية يقتضي

الإقصاء والعزلة. وكما جرت العادة في قرى الشام عامة، أن تتوارث إحدى العائلات ما يسمى (الـمَخْتَرَة)، أن يكون أحد أبنائها الأكفّاء مختاراً للقرية يدير شؤونها ويتدبر حل نزاعاتها، ويرأس مجلس كبرائها الذين يكون لهم الرأي والمشورة وللمختار أن يقرر..

ثمة اختلاف في هذه القرية لا يصلح إلا أن يكون استثناءاً، وتفرّداً لا يليق إلا بمن يستحقه، فحتى مختار القرية ورأس هرمها، كان ينصت لرأي (أبي محمد) ولا يذكر أحدٌ أنه قد تجاوز قراره أو خالفه المشورة في رأي، ولم يكن هذا الإجماع يستند إلى سلطة سياسية يمتلكها أو نفوذ ماديّ يطغى على رقاب أهل سِلوان، لكنه الاتفاق الضمني على ضرورة العودة إليه حين يستفحل الأمر..

أتذكر بيته الذي يحتلّ مدخل القرية، فلا يدخلها زائر أو ساكن أو يخرج منها إلا بمروره أمامه، لذلك لم يكن غريباً أن يتحول إلى مضافة للعابرين رغم ضيق حاله، يجلسون إليه ويستأنسون بحكمته وحديثه، يتناولون الشاي وما تيسّر من ثمار الأرض ثم يمضون إلى أحوالهم، تاركين له أن يكسب رزقه من خلال الحافلة التي تعبر خط القرية، قبل أن يعود بحلول الظلام إلى بيته الجميل.. لماذا أراه جميلا؟! لأن فيه بستانا صغيرا وشجرتي توت، ولأن فيه صبّارةً أدْمتْ أصابعي أكثر مما أدمتِ الغيدُ قلبي، ولأنني وقفت كثيرا على شرفته أراقب الذاهبين إلى سوق المدينة والقادمين بشغف الفضولي الصغير، فكم لعبت في تربة الأرض وأفسدتُ ثيابي، وكم اتسخَتْ أصابعي بالطين الخفيف ذي الرائحة الرطبة، وكم انخفضتُ على ركبتيّ لأشرب من الجدول الذي

كان يمر أمام البيت قبل أن يصرخ بي عابر طريق لأن ما أقوم به قذارة تستحق التأنيب! لماذا كنت أرى بيته جميلا؟! ربما لأنه بيت جَدّي!

لم يكن في البيت سواه، وزوجته المريضة بنصف شللٍ أصابها بالحزن لعدم قدرتها على خدمته كما ينبغي، تسكن معه ابنتاه الصغيرتان، بعد أن سافر ابنه الأكبر للإقامة في شواطئ الخليج الغضة، واستقرّ عمل الآخر شرقَ الضفة، وتزوجت بناته الأكبر سناً، زواجاً كلاسيكياً لا يسبقه حب. على الرغم من هذا البعد بين أبنائه، فقد كان يبتهج بالعودة إلى منزله وتدليل إحدى ابنتيه أكثر مما ينبغي، لقد كانت هذه البنت هدية السماء بعد أن توقفت زوجته عن الإنجاب عقداً من السنوات، وكان من شدة فرحه بها يصحبها إلى مجالس الرجال، على غير ما تقتضي عادات أهل القرى، وكان لها من الحب ما يكفي لأن تلفظ فتحصل على ما تريد من دون انتظار أو تأخير، لا يعني هذا أنه لم يحبّ ابنته الأخرى، لكن فرقاً واضحاً في المعاملة كان يعرفه الجميع من دون جرأة على التصريح به، فمن الذي يملك أن يقول له إنك مخطئ! لقد كان تقديره يتجاوز حدّ الاحترام، ومن شأن أي خلل في الوقوف أمامه أن ينسف صاحبه، ويسقطه من أعين أهل القرية كافة، وهذا ما لم يكن أحد يرغب به.

كانت الطفلة المدللة في ربيعها الخامس عشر حين أصيب أبوها بالسرطان، واضطر إلى إجراء جراحة تمسح الألم الذي يفتك بجسده، ولم تملك الفتاة الصغيرة غير أن تبكي وتتجه إلى الله بالدعاء. كانت تعلم أنها الوحيدة التي تترك أثرها بعد زيارته في المستشفى، إذ يكفي

أن تطل برأسها عبر باب غرفته المشتركة مع نزيل آخر، لكي تتبدل حاله من السخط والتشكي إلى مرح غير متوقع من رجل تخطى عتبة الستين.

لم يكن النزيل المشترك سوى عمّي! المدنيّ الذي لا يمل الكلام ولا يفتأ يسرد حكاياته المتعددة ومغامراته التي يرويها حين ينفرد بأبي محمد أو بحضور زواره الذين يبتسمون في ما بينهم، لمزاً في صحة ما يرويه، لكن هذا لم يمنع أن يستمع إليه الريفيّ المريض عن طيب خاطر، بل ويضحك إن استدعى الأمر فالوحدة قاتلة والخيارات محدودة ومحصورة به!

ولأن الفتاة المدللة كانت في زهو نضوجها، فقد بادر عمّي من دون مراعاة للظرف المَرَضي الذي يجمعه بأبيها، إلى خطبتها لأخيه، فيعتذر الأب بصغر سنها ودراستها، لكنّه يتمتع بدرجة رفيعة من الخبث، ويدرك أن أهل القرى لا يضعون الدراسة في الأولوية قبل الزواج، فيلحّ عليه مراراً وتكراراً، ويسترسل في تأكيد رغبته في الارتباط بهذا النسب، فيعده خيراً، ويطلب منه إرجاء الأمر حتى خروجه من المستشفى. أوه! يفضّل المرض أن يختار سكّة أخرى لقطار الحكاية، فيموت (أبو محمد) بعد خروجه من المستشفى ببضعة أشهر ولا يحدث بينهما لقاء آخر، ليصطحب صمته إلى قبره من دون أن يخبر أحدا بالأمر، ماذا لو استمر أبو محمد على قيد الحياة؟! هل كان سيقبل أن تتزوج مدلّلته غريباً لا يكاد يعرفه؟ في ذلك الوقت، لم يكن أهل القرى قد تخلّوا عن عاداتهم برفض الاقتران بأبناء المدينة،

واكتفوا بتزويج بناتهم من رجال القرية، فمهما كان سوء القرويّ فإن معرفة ناره خير من الجهل بجنّة المدنيّ، أياً كان هذا القادم من قلب البلدة العتيقة على قدرٍ من التبجيل والرزانة. لكن الموت اختار سكة أخرى ومات الرجل قبل أن يفكر بالأمر حتى!

الفتاة المدللة تنازلت عن نصيبها من الدراسة بعد أن أتمّت الصف الثاني المتوسط، لتقف على خدمة أمها، التي تعاني إضافة إلى الشلل، من داء السكر، وتتحمل برفقة أختها الصغرى مسؤولية رعايتها والاهتمام بشؤون المنزل، وأظن أن للكون حكمته في تمكين الحياة منها، وجعلها تنقطع عن الدراسة، فالمرأة التي تكشف السنوات القادمة شخصيتها، كان ممكناً أن تكون امرأةً أخرى لو ترك لها أن تقرر مصيرها، أعني امرأة أخرى من ذلك النوع الخارق من البشر، الذي لو توافرت له معادلة الموهبة وكيمياء الفرص المناسبة، لاستطاع أن يقلب العالم! وكما يحدث في القرى الصغيرة، والمنازل المتراصة على مصراعي مدخلها، وبين الناس الذين يعرفون بعضهم جيداً، لا يكون للبنت أية فرصة لتكسر نمط حياتها، باستثناء الأعمال المنزلية المعتادة، ورعاية أمها، والأعراس التي تطل مترافقة مع الصيف. وفي ظل ظروف الاحتلال، لا يبقى لها إلا الوقوف أمام المرآة والاستشهاد بها لتعرف متى يحلّ وعدُ الرجل المنتظر، والرقص أمامها، وفوق السرير، وفي كل الزوايا، نكاية بهذه العزلة الجبرية. ولأنها الأكبر من أختها، فقد كان لها أن تسيّرها على هواها، وأن تختار ما تلبسانه في عرس آل فلان، وأن تنتقي الأغنية التي سيرقصان عليها في عرس آل

فلان، وما يمكن لهما أن يقضيا به اليوم حتى يحل الظلام، وتنكمش كل واحدة في سريرها لتحلم كيف شاءت. لكنّ الكمية الهائلة من السخرية التي تختزنها الحياة في جوفها كافية لتتوزع على سكان الأرض بأسرها، شاءت الأيام أن يعود أخوهما من الأردنّ، حاملا معه رغبته في الحفاظ على البيت الذي تركه أبوه، ورعاية أختيه: هل يتركهما للضياع؟ والبيت من يرعاه؟ بعد أن أعلن زفافه متزامناً مع مرور شهر على وفاة أبيه، ضارباً بمشاعر أمه وأختيه عرض الجدران الأربعة!

يشبه رجال السبعينيات بشاربه الكث وسالِفَيْه العريضين، وقميصه الضيّق الذي يكشف عن ثلاثة أرباع صدره، ولأنه أشهر عابث عرفته سلوان، ونظراً لشرقيته المفتعلة، فقد كان لا بد أن يعمل على تحرير رجولته النافرة، وليس أسهل من وجود يتيمتين في سن المراهقة، وأم مريضة بلا راعٍ سواه، لإظهار شخصيته المصطنعة، وهكذا كان، إذ لم يكن يفوّت فرصة لفرد عضلاته ورغباته، ولم يتوان لحظة عن ضرب إحدى أختيه لأنها تأخرت في إحضار منفضة لسجائره التي لا تنطفئ، أو لأنها لم تجهّز بعد ما أمرَ به، ولا حيلة للأم الضعيفة سوى البكاء والتوسل إليه بضعفها لكفّ أذاه. وكان كعادته يعلل قسوته بأنه الرجل! وكلمته هي المطاعة: البنت ضلع أعوج يحتاج إلى تقويم دائم والضرب خير تقويم! إنهنّ غير مطيعات، وغير جديرات بالاحترام، ولا أريد أن يهرب الرجال منهما مستقبلا، هكذا ستظلان حتى تأوي كل منهما إلى ظل رجل يحتويها!.. ورغم عدم تصديقها له، إلا أنها

كانت مضطرة، بسبب عجزها، للتظاهر بقبول ما يقوله، أما البنات، فليس لهنّ إلا البكاء المر، والدعاء بأن يعجّل الرجال بالقدوم على خيولهم البيضاء، لتخليصهم من حارس البيت المتوحش!

بعد أن أمضى أبي عامه الأول من العمل في السعودية، و بمجرد أن تلمس أقدامه أول شوارع القدس، يقرر عمّي بالنيابة عنه أنه الآن وقد بلغ الثلاثين من عمره، فإن زواجه أصبح أمرا ضروريا، وقد اختار له عروسا تناسبه.. (وما المانع في ذلك؟!) حدّث أبي نفسه، أنثى تعينه على غربته خير من عزلة لم يكن أبدا قد اختارها، إن للعزلة شخوصها الذين تختارهم، واسمه ليس مدرجا في قائمتها، ليكن إذن..

العروس المرشّحة لمنصب الزوجة الشاغر، ابنة (أبي محمد) المدللة، وسريعاً تتم الأمور، فتذهب النساء لرؤيتها أولا حسب العادة، ليعود معهم الرجال في المرة الثانية، ويتفق الجميع على مباركة هذا الزواج، لتصبح الطفلة المدللة بعد عام من هذه الزيارة: أمّي!

يخطر لي أحيانا أنهما لا يليقان إلا ببعضهما، أبي وأمّي، فالبؤس المشترك الذي عاشاه نتيجة تسلط الأخ الأكبر وفقدان أحد أبويهما، كان الحائط الذي يستندان إليه في همومها، ولو أن أمراً ما طرأ بينهما فإن العقل الباطن يحيلهما تلقائيا إلى التجربة المريرة التي اقتسماها سوياً قبل أن يلتقيا، دون أن يصرحا بذلك أو يذكره أحدهما، لكن الأمور جرت دائما على هذا النحو، إذ لا أذكر أنهما اختلفا إلا ليختارا ما يجعلهما على وفاق..!

لهذا السبب، لا أستغرب أنهما بمجرد رؤية بعضهما في تلك

الزيارة، لم يترددا في القول: نعم، ولن تكون مفاجأة أنه بالرغم من كل المشاكل المادية والحياتية الأخرى التي واجهت تأسيس هذا الزواج، فقد كانا يحملان من العزيمة أن أصرا على السير باتجاه المستقبل الذي لا يعرفانه، واجتياز الخلافات التي حدثت بين عائلتيهما لتحقيق الهدف الذي يرميان إليه: الخلاص من جحيم الأسرة!

(4)

لقد تذكرتُ حياة والديّ وأنا متكئ على السور الحديدي، بانتظار قرارٍ أعرف أنني لن أتخذ غيره، لكنني خائف من المفاجآت، وخائف من النفوس التي تتقلب بين إصبعين، خائف مما لا أتوقعه، أطرقت رأسي، وسرحتُ بعيداً حيث لا أرض ولا سماء، وكنت أسمع صوت موسيقى فلسطينية، وفرقة نسائية ريفية تعلو أصواتها في الجسر:

- يا ظريف الطـول وقّف تاقلّك :: لا تسافر للغربة بلادك أحسن لك

تتداخل معها موسيقى صحراوية، ربابة جارحة، وصوت بدويّ هزّه الحنين إلى مراتعه، وأنا سارح في ملكوتي، والحيرة تطوف مثل ساقٍ مملّ، لمحت ظلا تتشقق الأرض عنه، وصوت أنفاس تعلو، كأنها أنفاس رجل منهك. حينما رفعت رأسي كانت الدنيا تميل إلى اللون الرمادي، والسواد ينسلّ ببطءٍ من زرقة السماء مثل شال ينسدل على وجهها، وثمة رعودٍ خفيفة تمنح المشهد إيقاعاً دراميا غامضا، وكأن المكان قد تبدل إلى آخر، والوجوه القليلة تختفي بهدوء الرحيل. تحولت صالات الجسر إلى خلفية ثابتة لمشهد خرافي لا يطل منه سوى اليباب، وثمة صحراء تمتد حتى تشغل حيّز البصر بأكمله، ومن بعيد يكبر هيكل امرأة مقبلة نحوي، بشرتها غامقة مثل حبوب القهوة، مشدودة مثل طبل غجريّ، لها ثديان ضخمان، ساقطان كما لوَ انّهما ينوءان بالحليب، كانت عارية إلا من إزارٍ ملفوفٍ بإحكامٍ يبدأ تحت

سرّتها وينتهي قبل ركبتها البارزة، وتمشي كأن الأرض تموج تحت قدميها، تقترب مع كل نفس أتنفسه فأزداد خوفاً وأغوص في حلقة من الرعب. حاولت الالتفات لأرى إن كان ثمة من يرى المشهد غيري فلم أجدهم، حاولت أن أصرخ لكن حنجرتي تغلفت بالصمت. تجولتُ بعينيّ بحثاً عن أبي، وأمي، وإخوتي، والضابطة الإسرائيلية التي كانت تمر بين وقت وآخر، والقلة من الناس الذين كنت أراهم يعبرون الجسر باتجاه الضفة الشرقية، لكن أحدا لم يكن، وكأن المكان اكتفى بي، بصحبة الضخمة السمراء التي جاءت تقطر خلفها طريقاً صحراوية طويلة، وكأنها اختطتها بذَيْلٍ خفيّ تجرّه خلفها!

وسط هذه الرهبة التي تبدّت للمكان، خيّل لي أنني عاجز عن الحراك، والنظر، وممنوع من الكلام والصياح، والأرض التي صارت رطبة بالندى والبخار تفوح منها رائحة الإنسان الأول، حيث طينته البدائية، وصلصاله الذي عُجن منه، وثمة ماء يتحرك كالسراب في كل زاوية تبصرها عيني. لقد كنت خفيفاً كأنني لست جالسا على السور الحديدي، السور لم يعد في مكانه، لقد تلاشى! وصرت متأرجحاً في الهواء، يحرّكني بمرونة وخفة مثل بالون مملوء بالهيليوم، ومربوط إلى لا شيء. لم يعد بإمكاني إتيان فعلٍ إرادي، يبدو أنني أحلم، هكذا فكّرت! وللوهلة الأولى انتبهت إلى أن قدرتي على التفكير ليست معطلة، بعكس بقية حواسي المتجمدة، وما زالت المرأة السمراء تقترب مني لكنها لا تصل!

صرتُ أحمل إحساس اللامؤمن بالنجاة من هذا الحلم! الذي

لا أدري إن كان حلماً أم حقيقة، وصرت أستخدم منفذي الأوحد للخروج من هذه الغيبوبة التي ترجّني، وكنت أرى كل ما أفكر فيه ماثلاً في الأفق بيني وبين المسافة التي تفصلني عن وصول المرأة، وكلما لمحت في خيالي مشهداً استحال صورة على الشاشة الوهمية الحائلة بيننا..!

لقد كان هناك ما يجعلني أندفع بأفكاري قبل أن تتوقف المرأة عن المسير، فأتمكن من رؤيتها بوضوح، إنه وجه أعرفه، هكذا حدثتُ نفسي، لكن عقلي الواعي أنكر ملامحه وكل معرفة به، وبدأت علامات الدهشة تظهر على وجهي مثل نتوءات ودمامل مؤقتة وسريعة الزوال، احتلّت مكان حواسي، فبرزت علامة تعجب في موضع أنفي، كان يمكنني رؤيتها على الشاشة الوهمية، وحاجباي أصبحا علامات ترقيم غامضة وغير مفهومة، وثمة أرقام ورموز وإشارات استفهام، وكأنني دفعت بكل أسئلتي في لحظة واحدة إلى بقعة لا تعيها ولا تستوعبها، وبدت الشاشة كأنها سطح كمبيوتر يعج بالملفات ذات الشفرات الغريبة والإشارات التي لا تُفهم، وكنت أتساءل إن كان عليّ الاحتفاظ بهذه الملفات أم حذفها، وكان الجواب يأتي سريعا إذ أرى صوراً تحلّ مكان ملفاتي القديمة، فتبرز لوحة فلسطينية قديمة، اسمها جمل المحامل، كانت هذه الصورة في إطارها المذهّب تبرز على حائط رمليّ داكن، وثمة كنبة تقليدية تحتها، وطفل بقميص قطني لم يتجاوز شهره السادس جالساً، يبدو كأنه يعبث بأصابع قدميه، وحينما أيقنتُ أنه يشبهني، نظر إليّ وابتسم، المرأة السمراء الواقفة بجواري

صارت بلا قدمين! كأنها نابتة من الأرض! يداها مسدلتان على جنبيها، ووجهها مضيء مثل بدر فوقَ شرفة ملكية، وأظافرها شفافة كأنها حلم، كانت تبتسم ابتسامة نجاشيٍّ حليق، دون أن تعرف الرعب الذي تبثّه فيّ! تكتب بيمناها الضخمة في الفراغ: فلسطين، ثم تجمع الريح التي تملأ المكان بين شفتيها وتنفخ على الكتابة فتمّحي وتتطاير كالغبار، وتكتب بيسراها، وهي أضخم من يدها اليمنى، أو هكذا خيّل لي: السعودية، قبل أن تتطاير بعد أن تنفخ عليها الريح التي جمعتها بين شفتيها وكلما كتبت حرفاً هطلت على الشاشة آلاف الصور، والوجوه والأسماء والمواقف، وكنت في كل مرة أنظر بين يمينها والشاشة تتبدل الصور كما لو كانت حقلا من الذكريات، وأنا كنت أغوص، أغوص في هذه الصور،، وأعود إلى صلصالي الأساسيّ، وليداً في مستشفى عام بالقدس،، تحملني قابلة يهوديّة ولا أبكي!

(5)

الفلسطينيون الذين بدؤوا النزوح إلى السعودية في منتصف القرن الماضي، يشبهون جميع الوافدين العرب الذين جاؤوا إبان طفرة النفط، لم يكن يجمعهم سوى هدف واحد: جمع ما يؤمّن حياتهم والعودة إلى ديارهم، وإن كان هناك من قال إنه يساهم في تنمية البقعة الصحراوية الناشئة، إلا أن الحقيقة ليست كذلك، فالمساهمة التنموية إن لم تكن ذات مردود يعادل جهدهم في العمل، فإن أحداً لن يكلّف نفسه عناء الغربة والعيش في ديار لا يعرفها، وهذا أيضا كان واحدا من أهم دوافع أبي لقبول الخروج من قدسه، برفقة أمي هذه المرة، تصحبه الرغبة في بناء استقلال لا يديره إلا هو، وحياة لا يمكن لغيره أن ينشئها أو يتدخل فيها..

هذا الهدف، فرض نمطا معينا من الحياة على أكثرهم، فالقادمون من مطحنة الأيام، ولعنة الجوع والفقر، يجدون أمامهم بفضل شهاداتهم وتعليمهم، وخبراتهم، وربما لمجرد كونهم أجانب أحياناً، فرصة كبيرة لبناء مستقبل مخمليّ، أو على الأقل، حياة أفضل من تلك الحياة التي عاشوها تحت اختلاف ظروف كل بلد، مما يعني أن أي إسراف في النمط المعيشيّ سيكون له آثاره السلبية على النتائج التي يحصدونها في نهاية فترة عملهم، فيصبح التقشف، أو الحياة المعتدلة على أكثر تقدير، هو النمط الأنسب لحياتهم.

عالم مجهول بيوت الوافدين العرب! لا يعرفه أحد، ولم تُسلط عليه العدسات، فالذين يتحدثون عن السعودية لا يمتلكون قدراً كافياً من الجرأة للحديث عنها أثناء وجودهم فيها، ينتظرون أن تنتهي عقودهم، خارجين بحصيلة السنوات، ثم إذا حصلوا على تأشيرة الخروج النهائي صاروا يطلقون اللعنات والشتائم صوبها، متناسين الحياة التي لم يحلموا بها لولا الفرصة التي أتيحت لهم للعمل فيها، وربما يتناسون عن عمد أن حياة أغلبهم كانت ستسير على نفس المنوال الذي عاشه لو لم يفتح القدر بواباته الضخمة للعيش في كنف هذه الأرض. هؤلاء فئة، وثمة فئة أخرى ذبحها الحنين إلى أرضها، فلا هي استطاعت العيش هنا، ولا هي أنجزت لمستقبلها ما يمكِّنها من العيش في بحبوحة في بلادها، وهم ساخطون أيضاً، يأتي أحدهم من صعيدٍ مختلفٍ، لا يتوافق مع ما تحمله الأرض الجديدة من أشكال الحياة التي لا تشبهه، ويرحل كمن يجرّ خلفه حملاً فرح بالتخلص منه. وهناك آخرون مختلفون أيضا، وآخرون، وآخرون، فمن الذي بإمكانه أن يكشف رأسه ويحكي عن الأرض وهو في روحها؟ وهو مشدود إلى جلدها مثل وشم؟ ومن الوافد الذي يستطيع أن يتحدث عن السعودية وهو يتنفس نسائمها؟!

لم تكن حياة أسرتي مختلفة عن البيوت الفلسطينية المقيمة هنا، لكنّ سعادة العروسين الجديدين، لم تدع لهما فرصة التفكير في رسم حياة فارهة، فهم يعيشون اللحظة كيفما سارت، ويمارسونها بتلقائية، من دون أن يكون لهم مشروع مستقبلي، بيتهم صغير

مكون من غرفتين، إحداهما للجلوس والأخرى للنوم، ولا تحمل حياتهم الكثير من التفاصيل، فما بين عمل الرجل، والزوجة الشابة التي لا تحمل هماً سوى إرضاء عالمها الجديد، يضع الفراغ أثقاله وأحماله، وتسيطر العزلة التامة على مجريات حياتهم، عدد العوائل التي يعرفونها لا تتجاوز أصابع اليدين، كلهم فلسطينيون، عائلة وحيدة سعودية كسرت الطوق، أو أجبرتهم على كسره، كانوا جيران المنزل، وثمة أسباب لذلك، فهم سعوديون مختلفون كما سمعت أهلي يقولون عدة مرات، يتحدرون من عروق هنديّة، وتنبع الطيبة من أفرادهم جميعاً، كما لو كانوا شجرة زيتون ضخمة ظللت العائلة الفلسطينية الشابة. كانت هذه العائلة شرخاً اجتماعياً وحيداً سمح به أبي، لأنهم مختلفون، أو ربما لأن أمهم من جنسية عربية أخرى، ويظن أبي أن الأسرة تأخذ طابع الأم دائما! هذه الأم التي كانت نائباً دائماً عن جدتي لأمي، والتي لم تر اختلافاً بين ابنتها الوحيدة، والشابة الفلسطينية، فاستمرت تردد طوال معرفتنا بهم أن الله كان رحيماً بابنتها حين أرسل لها أختاً تخلّصها من وحدتها وسط إخوتها الذكور. إن الأمور الاستثنائية لا تحدث دائماً في هذا العالم، وهي عندما تبدأ لا تتوقف، فهي خلقت لتكون استثناءً، وتستمر..!

ما الأحاديث التي كانت تدور بين العوائل الفلسطينية حين تجتمع؟! لا حوار يجمعهم، ولا كلام يدور بينهم سوى ما ترشّه الغربة على أمسياتهم من الحنين واستذكار البلاد، تلك البلاد التي ابتعدوا عنها بإرادتهم غالباً، هؤلاء لم يخرجوا مرغمين، ولم يضطرهم

أحد إلى النزوح عن ديارهم، ولا مغادرة بلدهم التي يتباكون عليها، إنهم يدورون في ذات الفلك الذي تحمله أيامهم، فيصير الطعام الفلسطيني ألذ أطايب العالم، والمرأة الفلسطينية أجمل النساء، والرجال الفلسطينيين هم الأفذاذ الذين لا ينازعهم في عبقريتهم أحد، وهم الشعب الأذكى قاطبة فوق هذه البسيطة، وهم الغناء إذا حضرت الموّالات والعتابا، وهم الزيتون الذي لو طُفت الأرض على رجليك لن تجد أفضل منه، وهم القداسة في الأرض، والوداعة في المعشر، والبهاء في الطلة. ليس بإمكاني الموافقة على هذا كله، ولا أستطيع رفضه طبعاً، أنا الذي نشأت بعيدا عن الأسماء الغريبة التي عرفتها لاحقا، وجاهلاً بأدنى مقومات الحياة الافتراضية التي سمعت في ما بعد ما يقولونه عنها، وغير مدرك للأسماء التي رددوها كثيراً: عوائلهم، شوارعهم، والسمات التي ينقلونها عن بلادهم، ماذا؟ هل قلتُ بلادهم؟ أليست بلادي أيضا؟!

كان هذا قبل أن تطل أولى مفاجآت أسرتي في حياتهم الجديدة، حين يكتشفون بعد زمن خفيف، أن كائناً لا يعرفونه سينمو خلال الأشهر القادمة، وأن عليهم إعادة ترتيب أوراقهم لاستقبال هذا الكائن، ويعدّان العدّة لتتم الولادة في فلسطين، كي يتمكن مولودهم من الحصول على الهوية الزرقاء، حق المواطنة الذي لا تمنحه الدولة الإسرائيلية إلا لمن يولد تحت سلطاتها، وفي الأرض التي تفرض سيطرتها عليها، فيسافران لاستقباله هناك، ذلك المولود الذي كان ذات صباح خميسٍ أكتوبريّ: أنا، الفلسطيني الذي وفدت أسرته إلى السعودية قبل ثلاثين عاما، فعاش حياته كلها فيها، ذلك التاريخ سيكون

رصاصة الانطلاق، لإزعاج مستمر يعاني منه والداي بداية، ثم يمتد حتى لا أظنه سيتوقف يوما..! كان من الغريب أنني لم أصرخ حين ولدت، ولم يعرف أحد بولادة طفل سوى من خلال الجسد الطريّ، الذي تحمله قابلة سمراء بين ذراعيها وتضعه بين يدي الأم الصغيرة، التي تستغرب أيضا طفلها الصامت، ما دفعها إلى الشك بخلل قد يحمله، وقد حاول الطبيب حملي على البكاء لكي يتأكد من صحة حواسي، فكانت القَرْصة التي حظيَت بها رجلي هي أول ألم يمر بي، وعلمت فيما بعد أن الألم هو البداية دائما، ثم يليه ما يليه..! لقد تحوّل الوليد الصامت إلى صوت ضخم وعذب، صوتٍ لا يتوقف أبدا..!

كان لا بد أن نعود سريعا، فارتباط والدي بعمله في السعودية، لم يسمح له بتمديد الإجازة السنوية، الإجازة التي اختار أن تُزامن توقيت ولادتي في المكان الذي اختاره، لتحمل وثائقي وأوراقي الرسمية، ما يشبه الدهشة حيناً، والتهمة غالب الأحيان، عبارة: وُلِد في القدس..!

ورغم أنني رأيت ولادتي في الشاشة الوهمية، وجسدي الصغير ملطخاً بالدم قبل أن يغسلوه، والمرأة الضخمة السمراءُ تكتب في الهواء ما أظن أنه حياتي، وتبتسم في لحظاتٍ متقطعة، متساوية في الوقت الفاصل بينها، إلا أنني أرى تشويشاً على الصورة، وأرى قوافلَ عربيةً تسير بجانب المستشفى، في صحراء مُقامة بجوار النافذة التي تطل منها أمي، وهي تأخذني من حضن القابلة اليهودية لتمنحني أوّل الموسيقى، وأول العباءات المقصّبة، وحين مددت يدي الصغيرة من النافذة التقطتُ عقالاً من الصوف، يشبه الوقت في رائحته، وظهور الخرافَ في احتكاك كفيَ به. لكنه كان ثقيلاً فسقط من يدي قبل أن تكتب المرأة السمراء بيديها: العودة! الكلمة التي امّحت بعدما

جمعت الريح إلى شفتيها وذراعاها مرفوعتان في الهواء، ونفختها عليها فتطايرت! وقبل أن تشير بسبابتها إلى صدري الذي خضّته موجة من الخوف والبهجة، وأنا أتساءل عما ستكتبه الضخمة السمراء، التي أعرف وجهها وينكرها عقلي..!

(6)

من الغريب أن أكثر المراحل المؤثرة في حياة الإنسان هي تلك التي لا يتذكر أغلبها. إنها كل تلك التعليمات التي يتلقّاها من أهله ومن محيطه التي ستساهم في تشكيل نظرته إلى الحياة، وبناء شخصيته وطباعه.

بعد عشرين يوماً من ولادتي غادرت القدس إلى جدة، كانت حياة العائلة الصغيرة عادية جدا، ولا يميزها شيء، ولا أذكر حدثاً يجعل في حياتهم ما هو مثير.. كان هذا مناسبا لأنشأ في أسرة خالية إلا من همّ بناء نفسها، أو أنها تصوّرَتْ هذا، والعودة بأسرع ما يمكن إلى فلسطين، حيث سيعيش أبناؤهم ما أرادوا أن يطبعوهم به، إذ لا يترك الفلسطينيون لأبنائهم فرصة للتجارب غالبا، يظنون أن عليهم إحاطتهم بأذرع الحرص والمتابعة، وأن عليهم ممارسة التوجيه في كل لحظة، ومراقبة كل سلوك. يعتقدون أنهم يحافظون على صورتهم أمام الناس، وأن عليهم أن يتدخلوا باستمرار في كل زوايا حياتهم، ليس من الغريب إذاً أن ينشأ الأبناء نسخاً مكررة عن آبائهم، ربما كان هذا وارداً في كل بقعة من الأرض، لكنني أحكي عما أعرفه، وعما عشته وتشبّعت به. أكثر الفلسطينيين الذين عرفتهم يتحدثون بالطريقة نفسها، يأكلون الوجبات المكررة ذاتها، ويلبسون ملابس متشابهة تكاد لا تختلف إلا باختلاف أطوالهم وأوزانهم، صلعاتُهم وشنباتهم

لها نفس الهيئة، وعصبيتهم لها نفس المفردات البذيئة، وأخلاقهم الجيدة لا تبرز بينهم إلا بحضور زوجاتهم اللائي لا يتوقفن عن تقريعهم إذا بدر منهم ما هو مخجل ومسيء. يحرصون على تطعيم أبنائهم بما يظنون أنه الأفضل في العالم، هل رأيتم الفلسطينيين المعلّمين؟ والمهندسين؟ ورجال الورش ومخارط السيارات؟ هل رأيتم المحاسبين الفلسطينيين؟ يحملون ساندويشات الزعتر والزيت في كيس بلاستيكي، ويرتدون قمصاناً مقلَّمة، وبنطلونات قماش بألوان داكنة: لماذا لم يكن الفلسطينيون يرتدون الجينز؟! أو الثياب العربية؟! لماذا يتحدثون كأنهم فرقة من الأنبياء؟!

لا أعرف عن نفسي كثيرا حين كنت طفلا، ولا أحفظ صوراً مكتملة عن تلك الفترة، لكنني بلا يقين ولا شك، لم أكن مشاغباً، ولم أكن أكثر من طفل صامت، وما خلا الزيارات القليلة التي تقوم بها أسرتي إلى عائلات الفلسطينيين الذين يعرفونهم في جدة، لم يكن هناك احتكاك بأحد، ولم تنجح أسرتي بالاندماج في المجتمع السعوديّ، أو التعرف إليه، لقد كان أكثر المغتربين الفلسطينيين في ذلك الوقت، إن لم يكونوا جميعا، يبنون سوراً عالياً بينهم وبين أن تنشأ لهم علاقات مع أفراد المجتمع السعودي، لم يحصل ذلك إلا نادراً، وفي أطر محددة! ليس من السهل تفنيد أسباب هذا السور الذي نشأ بين الفريقين، إذ إن كلا منهما في ملكوته يظن بأفضليته، يؤمن الفلسطينيون أنهم أكثر وجاهة وعلما وثقافة! وأن لهم من الفضل الكثير في تغيير البلد، وعلى النقيض ينظر السعوديون إلى الفلسطينيين

باعتبارهم أقل شأنا وأنهم حفنة من المرتزقة اللاجئين! الذي جاؤوا لينهبوا ما في البلد من خيرات، هذا اعتقاد سائد وليس مطلقاً، ولا أميل إلى كفة على حساب أخرى، لا بد أن اختلاف العادات من جهة، والقلق الذي فرضته خصوصية المجتمع السعودي من جهة خرى، وانعدام الحرص على فهم الآخر، كل هذا صنع فجوة كبيرة في التواصل بينهما، وكلٌ في فلكه يجمع حساباته باعتبار يقينه ولا ينظر إلى الآخر إلا باعتباره دخيلا طفيلياً..!

بالنسبة لأبي، كان أحد الذين يلتزمون بالصورة العامة، فلم يُقدم على إنشاء علاقة مع أطراف سعودية. طوال حياته التي تجاوزت ثلاثين عاماً، كان يرفض التعرف إليهم، أو الاختلاط بمناسباتهم، وهم كانوا كذلك أيضا، وإن صادف أن أحدهم بادره بالتودّد، بدعوة عابرة، أو مناسبة اجتماعية، فإنه كان يسعى إلى صدّها بكل الوسائل المتاحة، واجتناب تكرارها من قبل الداعي، مما رسم عنه صورة الشخص الذي يحمل الذهنية العمومية السائدة لدى الفريقين.

حياة العائلة في تلك الفترة مشوّشة في ذاكرتي: صورٌ مختلفة للوانيت البرتقالي الذي كان يقوده أبي، معارفنا الفلسطينيون، أقرباء الأسرة الوحيدون الذين يترددون علينا بين وقت وآخر، جيراننا الحجازيون الذين يسكنون البيت المجاور.. حياة بسيطة وعادية، ليس فيها ما يخرق عاديّتها. في تلك الأيام، لم تكن الحياة صاخبة، والسيارات كانت قليلة في الشوارع التي أعرفها، والأطفال كانوا قليلين أيضا، ولم أعرف للأصدقاء معنى واضحاً قبل أن ألتحق

بالمدرسة.. كنا نسكن حياً شعبيّاً، وكانت المتعة الوحيدة التي نعرفها هي التلفزيون! إذ لا يوجد للترفيه وسائل أخرى، كنتُ، وإخوتي نقضي وقتنا برفقة الأم التي حرصت كثيرا على تهذيبنا، وتلقيننا كل ما رغبت أن نكون عليه، يدعمها في ذلك أبي. ورغم صغر سنها، فإنها كانت لا تتأفف من حياتها داخل الجدران برفقة صغارها، حتى تحل الظهيرة إذ يعود الأب من عمله وتجتمع الأسرة الصغيرة على طاولة الغداء. ثم يمضي الأب إلى عمله مرة أخرى، ليعود في السابعة مساء حين يغفو أطفاله برعاية الملائكة في فراشهم، وينام البيت كله قبل نشرة أخبار التاسعة، والموسيقى الخضراء لمحمد عبد الوهاب!

كان هذا النظام المعمول به طوال أيام الأسبوع، وفي يوم الإجازة، يأخذ الأب زوجته وصغاره إلى البحر القريب، أمام النافورة الكبيرة التي كان ينبهر الأطفال بها، يقضون عصرهم في جلسة قصية على الشاطئ، وقبل حلول الظلام تكون الأسرة قد عادت إلى البيت، وعادت إلى الروتين مرة أخرى.

أتيح لي في الصيف الذي سبق التحاقي بالمدرسة، أن أدخل للمرة الأولى عالمَ الأطفال الكثيرين: روضة الأطفال، المكان الذي يعج بخيارات كثيرة من اللهو والتعلم، كانت أغلب الدروس معلومة بالنسبة لي، فقد أنفقت والدتي وقتها في تلقيننا مبادئ القراءة والكتابة والحساب قبل دخولنا عالم المدارس، وكنت أملك محصلة جيدة مما يقدمونه في هذه الروضة. لم يكن هناك ما هو ملفت، باستثناء أنني صادقت عددا كبيرا من الأطفال، وصرت أحرص على اصطحاب

أحدهم كل يوم إلى البيت لأقدمه للأسرة، كل يوم صديق أو صديقة، وأكثر ما كان يفاجئني في هؤلاء الأصدقاء أنهم يقبلون العرض للعودة معي إلى البيت فوراً، وحين أسألهم إن كانوا بحاجة للاستئذان من أهلهم للمجيء معي، كما تعودت على الاستئذان حتى قبل النوم، كان جوابهم أكثر الأشياء دهشة: لا..! كان وقتاً قصيراً لم يزد عن الشهرين، لكنه منحني إمكانية الاطلاع على عالم مختلف، والخروج من العالم الصغير الذي أعيشه في السعودية. فالخوف الشديد والحرص الذي كانت تحيطنا به الأسرة كان في غير مكانه، لا أحد يعرف ما ستكون عليه حال الأطفال المقيمين في عزلة جبرية بلا أصدقاء وعبث!

انتهت إجازة الصيف، وعدت إلى جدة، وبدأ التغيير الكبير الذي سيقلب حياتي الهادئة رأسا على عقب: المدرسة! ولن أواجه مشكلة في أولى سنوات دراستي لأعيد ما تعلمته مسبقا: القراءة والكتابة، لكنّ أشياء كثيرة ستختلف: فهناك الفصل الذي يحتوي أربعين طالبا، والمدرِّس الذي يمسك العصا لتأديبنا، ومبنى المدرسة الكبير، وارتدائي في المدرسة ثيابا جديدة لا تشبه قمصاني التي أرتديها وبناطيلي الملونة: ثوب وشماغ وعقال! لم أنم من شدة الفرح، فهي مغامرة جديدة أو تسلية جديدة، لا أعلم أي مقياس استخدمته لأحدد مشاعري تجاه المدرسة قبل أن أذهب، لكنني أحببتها، وفرحت بالمصطلح الجديد الذي دخل قاموسي: مدرسة. يظن الطفل أن آخر معارفه هي أقصى ما سيمكنه الوصول إليه، ولا يدري أن الأيام تخبئ في جيوبها ما سوف تفرطه أمامه لحظة بعد لحظة، ومفاجأة عقب مفاجأة!

في صباح اليوم الأول، تركني والدي في الفصل بعد أن اطمئن إلى جلوسي هادئا وقال إنه سيعود ليأخذني بعد الظهر، يفترض أنني سأجلس في الفصل وأستمع إلى كلام المدرِّس حتى يعود أبي، لكنّ الفسحة المدرسية تنغّص عليّ مخططي، إذ اضطررت إلى الخروج من الفصل مع بقية الطلبة، وهنا ما لن أجيد التصرف فيه أو حياله، فأختار زاوية في فناء المدرسة، وأبكي بمرارة من دون أن أفهم كيف لم يبلغني أبي أن شيئا كهذا سيحدث، لأنني لم أعتد أي عمل بلا ترتيب مسبق مع الأسرة، وبلا تعليمات محددة، فربما يعاقبني أبي لأنني خرجت من الفصل من دون إذنه! كان هذا واحدا من أسوأ الأوقات التي قضيتها في حياتي: الوقت الذي لم يخبرني أحد بما يتوجب عليّ فعله فيه، ولم أمتلك من طفولتي ما يؤهلني للتعامل معه!

انتهى اليوم الأول ببكاء كثير، ومعلّم مصري صارم، وأصدقاء جدد: محمد الجزائري، وبلال اليمنيّ، ونايف السعودي! إنها المرة الأولى التي أتعرف فيها إلى طفل سعودي، شخصية غريبة بالنسبة لي، وكان يقف أمامي مثل علامة تعجب، لهجته غير مألوفة ولا أفهم كلماتها، واسمه بالنسبة لي غريب، مثل أسماء السعوديين كلهم في ذلك الوقت، لقد ترددت كثيراً حين أخبرت عائلتي بمجريات اليوم الأول، وبعد أن حكيت عن أصدقائي الجدد، توقفت قليلا حين قلت اسم نايف، لتبادرني أمي: نايف؟! ما جنسيته؟! معيار غريب أقامته الأسرة لتحديد هوية أصدقائي في المدرسة، وفوق معيار الأدب الذي كان يقدّم لنا باعتباره أعلى المعايير، لأحصل على صك نهائي لمعاملاتي مع السعوديين: لا تصادقهم ولا تتعرف إليهم!

من الذي قال إن الأطفال يدركون جنسياتهم؟! وكيف تصوَّر هؤلاء الآباء أن تمضي حياة أبنائهم في البلاد التي اختاروها من دون أن يصبحوا جزءً منها؟ لماذا يظنون أن الهوية حق حصري لهم يتوجب عليهم منحه لأبنائهم من دون أن تكون لهم الحرية في تقرير هوياتهم!! ومن الذي قرر أن نايف سيصبح أشد أصدقائي قرباً مني؟!

لقد كان هناك ما يشدني إلى نايف تحديداً، فباعتباره ممنوعاً وسعودياً، ومتفوقاً مثلي، هذه الأسباب دفعتني إلى الاقتراب منه أكثر، وربما كان هذان الطفلان يحملان من الصفات المشتركة كثيراً مما يقتسمه الأطفال. كان هو صديقي المميز، والأكثر قرباً من عالم طفولتي، لذلك لم أستغرب أنني تعرفت إليه بعد عشرين عاماً، حين كنت في مطار جدة، ووجدته ضمن طاقم الخطوط السعودية في المطار، رغم أنه لم يعرفني، لكنّ الأشياء الأولى تظل أبداً معلَّقة في الذاكرة، وهو كان أول سعودي في حياتي..!

لقد عرفت الآن أنني عالقٌ في دائرة المواجهة الأولى لهذا العالم، وصرتُ لا أطيق الانتظار لأعرف ما الذي ستنتهي إليه هذه الحال، إنني معلقٌ مثل عاشقٍ في الهواء، ومقيد الأطراف والإرادة، والمرأة السمراء التي انتبهتُ أن ظهرها صلبٌ مثل قطعة مصقولة من الرخام الداكن لا تمنحني فرصة لسؤالها، أو لإطلاقي من اليباب الذي يحيط بي من كل جانب! لم يفاجئني اختفاء أسرتي، لكنني مذهول من أصواتهم التي أسمعها حين يطلّون على الشاشة الماثلة في الأفق، تختلف عن أصواتهم الحقيقية، وتبدو أصواتاً غير صادقة مقارنة بما أعرفهم به! لكنني كنت آخذها بجديّة فيصيبني الذعر حين يحكي أبي، وأشعر برغبة في المراوغة حين تقف أمي لتأنيبي، لكنّ مشاعري هذه

لا تعني شيئاً ما لم أتوصل إلى إجابة عما أرغب في تنفيذه والعودة إلى السعودية بأسرع وقت. كانت: متى؟ هي الكلمة التي لمحتها تتلاشى قبل أن تضرب المرأة السمراء كفّيها ببعضهما لتنفض عنهما غبار الطباشير الأبيض، الذي يتطاير ويخفي كل شيء يحطّ عليه!

.

(7)

في السنوات الابتدائية للدراسة، بدأت تظهر الفروقات التي لم أكن أعرفها بين السعودي والأجنبي، كان يدخل المرشد الطلابي إلى فصلنا، ويطلب من السعوديين أن يقفوا أولا، ثم يُجْلِسهم ويطلب إلى الأجانب أن يقفوا. في أول مرة حدث هذا، لم أقف حينما وقف الأجانب، لأن الأجانب الذين أعرفهم مختلفون، أوروبيون أو أمريكان، لا يتحدثون العربية ولا يشبهوننا، ولم أقف مع السعوديين أيضاً، سألني المرشد إن كنتُ سعودياً، فأجبت بالنفي وقلت إنني فلسطيني، فوبّخني لأنني لم أقف مع الأجانب! وصرت بعدها في كل مرة يدخل فيها إلينا أقف مع الأجانب. لم تكن الدراسة مجالا لظهور فرق بين السعوديين وغيرهم، باستثناء وقفة الأجانب، والإثبات الرسمي الذي يطلبون منا إحضاره، فيحضر الأجانب كلهم صورة لدفتر الإقامة، بينما يحضر السعوديون تابعياتهم، التي أصبحت تبيّن لنا فيما بعد أننا مختلفون!

لقد جلسنا على كراسٍ متشابهة، وحصلنا على الكتب نفسها، وتلقينا الدروس في المدارس ذاتها ومع المعلمين ذاتهم، عوقبنا لأننا مشاغبون، وقمنا بتنظيف فناء المدرسة سوياً، قضينا الفسحة المدرسية بصحبة ضحكاتنا التي لم تتوقف، وكنا جميعاً نشجع فريقي الاتحاد والأهلي، حيث لا أندية غيرهما في جدة، بكينا آلام البطن

التي كانت تصيبنا بشكل جماعي لأسباب مجهولة، وتمّ تكريمنا سوياً نحن المتفوقين حين حصدنا المراكز الأولى، وطلبوا منا جميعا أن نرسم في كراساتنا رسمة واحدة، ومعاً كنّا نذهب المكتبة العامة المجاورة لمدرستي الابتدائية لنستعير قصص الأطفال، وانتظرنا تحت شجرة اللوز البحريّ آباءنا لكي يقلّونا إلى منازلنا في نهاية اليوم المدرسيّ، كانت تتشكل شخصياتنا سوياً، ونحمل صفاتنا التي تأثرنا فيها ببعضنا، وأثّرنا بها على بعضنا، قبل أن نعود إلى أُسَرِنا التي تخلق في شخصياتنا انفصاماً، وفي ألسنتنا لهجة أخرى، وفي حياتنا المنزلية قناعاً مختلفاً عن وجوهنا التي نحملها في المدرسة، لم يكن لي بعد كل هذا أن ألمس علامات مختلفة بيني وبين السعودي الذي أجهدت الأسرة نفسها في تحذيري منه، هو الذي لا يختلف عني إلا بما تقوم أسرته بزرعه من اختلاف فيه، مثلي تماما..!

مرت أيام الدراسة كلها بشكل روتيني. ولم يكن مفاجئاً أن أكون الأول في صفي كل عام، إذ يتوجب عليّ أن أكون الأول. كانت الأسرة تتعامل مع الأمر على أنه استحقاق لا يجب أن يُنتَزع مني، وليت الأمر كان بيدي في ذلك الوقت، لاخترتُ حينها أن أرسب عاما، وأحب مادة دون أخرى، وألا يكون خطي جميلا وغير بارع في الرسم. وقد أختار أن أتفوّق. لكنّني لم أُمنَح فرصة الاختيار. كان التفوق خيارا إلزامياً..!

كان نموذج الطالب المتفوق يقتضي أن يكون أنيقا دائما، مسرّح الشعر، يحرص على ألا تتسخ ثيابه، الطالب المتفوق لا يتلفظ

بكلمات بذيئة، ولا يشتم ولا يتحدث إلا بأدب، وقبل أن يفعل أي شيء عليه أن يستأذن أحدا، وعليه أن يحترم الكبار، ولا يشاكس الصغار، وعليه أن يعود من المدرسة ليستحِمّ ويبدل ثيابه، ويتناول غداءه، ثم يحل فروضه ويدرس، لينام في السابعة مساء، ربما قبل أن يعود والده ويطبع على جبينه قبلة المساء، فيأخذها وهو نائم. لقد كان هذا نموذجا شبه موحّد يفرضه الوافدون العرب على أبنائهم، ونادرا ما كنا نرى في المدرسة طفلا أجنبياً غير متفوِّق، لقد كانوا يعلموننا أننا أتينا هنا ونحن غرباء، وعلينا، لكي لا نفضح أنفسنا، ولا أدري عن أي فضيحة يتحدثون، ألا نُشَمّت أحدا بنا، وكأن ثمة فريقاً من الشامتين ينتظرون فشلنا ليبدؤوا الضحكَ فور سقوطنا..! في ذلك الوقت، كنت أحب ما أنا عليه، إن لم يكن رغبة به، فخوفاً من أسرتي التي لن ترحم أي تقصير تجاه الصورة التي يتعبون لرسمها أمام المحيطين بهم، كان هذا قاسياً ، ومجحفاً في الوقت ذاته، أن لا يعبأ أحد بما يريده الصغار!

أثناء سنوات دراستي الابتدائية، انتقلت أسرتي من الحي الذي أسكنه إلى حي آخر، وهنا تبدأ حياة أطول، وجذر أعمق، واختلافات كثيرة يرسمها حي (النزلة الشرقية) في حياتي، بدأت الأسرة في التواصل مع جنسيات جديدة مختلفة، وإن كانت ما زالت تحمل تحفظات تجاه السعوديين، إلا أنها بدت أكثر مرونة مع عائلات شامية وحضرميّة تقطن الحيّ، فأصبح السوريون واللبنانيون، جيراننا الجدد، مقربين من حياتنا اليومية، وأصبحنا نستمع إلى لهجات متعددة بعد أن كانت آذاننا بعد المدرسة معتادة على إيقاع وحيد للهجة لا تتبدل،

ورغم الملامح الجغرافية العامة التي تنطبع على لهجات الشام، إلا أننا ندرك فروقها البسيطة في التفاصيل التي نعيشها، وندرك الموطن الأصلي للّكنة بمجرد سماعها، هذا ما اعتدنا عليه، وتدريجيا بدأت القيود المرسومة حولنا في التحلحل، فصار بإمكاننا النزول إلى الشارع واللعب في الحارة! يا لجمال الحواري وحريتها! أطفال كثيرون، ورجال بسحنات مختلفة، باعة أطعمة متجولون، آسيويّون ويمنيون، ووافدون من جنسيات كثيرة يضغطون هذا المكان بكثافتهم السكانية، ومسجد ضخم يصلّون فيه. لم تكن أدوات اللهو كثيرة، فلا مجال إلا للعب كرة القدم، حيث قطّع الإسفلت أقدامنا وركبنا، في ذلك الحي القابع في جنوب جدة، تكثر الطرق الضيقة والحفر في الشوارع، وتبتعد المظاهر الحضارية عنها كثيراً، الناس هنا بعيدون عما يشغل العالم، وغارقون في حياتهم الخاصة عمّا تسير به عجلة الحياة، مشغولون بتحصيل لقمة العيش والمشاكل الاعتيادية التي تسمعها بين الأجانب: العامل مع كفيله، والموظف مع مديره، والمرأة مع جارتها، والفلسطينيون مزروعون في هذا الحي كالألغام، ينتشرون في كل أوساطه وأطرافه، ولا يكاد شارع يخلو من رجالهم أو عيالهم، يعملون في كل المهن المتاحة لهم، أكثرهم مقاولون أو موظفون في منشآت صغيرة برواتب ضئيلة غالباً، بعضهم يحملون الجنسية السعودية ولا أدري كيف حصلوا عليها، وكم كان غريباً أن أحكي مع طفل يتحدث لهجته الغزّاوية بطلاقة ليخبرني فجأة بعد فترة أنه سعودي، وأنه لا يزال يحمل الفلسطينيّ في داخله، ولا يعترف، كما يقول أهله عادة، بجنسيته السعودية!

لم تدعم هذه السنوات نظرية أهلي في الابتعاد عن الطلبة السعوديين، فها هي السنوات تمر، وها هم أصدقائي السعوديون يزدادون عدداً وقرباً وصداقة، وها أنا أقترب من عوالمهم وأبدأ بتهجين لساني بكلماتهم، وأستخدمها في المدرسة. صار لي لسان مختلف تنساب به لهجتي كأنني تلقيتها في حليب الرضاعة، يسخط أهلي من استخدامي لها حيناً ويضحكون أحياناً مما اعتبروه سخرية وتقليداً، ولم يدركوا أن حقيقة أخرى أخذت في النمو بعيداً عنهم. إن هويتي الفلسطينية التي غرسوها هذه السنوات لم تعد تشكل العصب الوحيد في تكويني، فثمة ملامح سعودية في لساني، وأخرى مصرية، وجزائرية، ويمنية، ووو، ولن يتوقف هذا الأمر ما دمت دخلت إلى هذا المجتمع، قبل أن تدخل هوية أخرى إلى الطريق، وتمنحني طابعاً إضافياً في شخصيتي، إذ إن حواراً بين أبي ومؤذن المسجد الذي يجاور منزلنا، دفع أبي إلى إلحاقي بحلقة تحفيظ القرآن، ورغم تحفظاته الكثيرة على قيامنا بأي نشاط خارج إطار الأسرة، إذ كان يمنعنا من المشاركة في الرحلات التي كانت تقيمها المدرسة، إلا أنه خرج عن تحفظاته، رغبة منه في تعلّمنا للقرآن، وتطوير أداوتنا في اللغة العربية، وهكذا كان..

ولأن المكتبة الملحقة بالمسجد لم تكن تبعد سوى أمتار معدودة، فقد كان ذلك من دواعي بهجتي. تنتهي حلقة التحفيظ بعد صلاة العصر، فأتوجه إلى المكتبة وأظل فيها حتى تنتهي صلاة العشاء، يوميا، أقرأ كل ما يقع تحت يدي على محدوديته، إذ إن الكتب

المتوفرة في المكتبة، على كثرتها، شبه محصورة بالعلوم القرآنية والدراسات الدينية، واللغة العربية والتاريخ، على كل حال كانت هذه الأجواء فرصة لن أفقدها، فقد مارست فعلا جديدا يلازمني حتى الآن، وأفلتُّ، ولو قليلا، من الأغلال التي تفرضها أسرتي عليّ، وتبعا لتفوقي في المدرسة، فقد كان لزاما عليّ أن أتفوق في حلقة تحفيظ القرآن، ودروس التجويد والحديث، فأجاوز المجموعة التي التحقت بها، وشيئا فشيئا، تجذبني التوجّهات التي يفرضها علينا مدرِّس التحفيظ، بداية من الالتزام بحفظ القرآن والتزام الصف الأول في الصلاة، وليس انتهاء بالمشاركة في المسابقات الدينية التي تقيمها الجماعات المسؤولة عن هذه الأنشطة، مرورا بكل ما قد يمر به أبناء ذلك الوسط الاجتماعي في جنوب جدة، في المفصل الزمني بين الثمانينات وأوائل التسعينات.

(8)

إنها بدايات أغسطس. الصباحات الفلسطينية الدافئة من عام 1990. تحملني الإجازة على النوم في ساعات صباحها، أحتفظ جيدا بهذه الصورة: أفتح عيني على شاشة التلفاز. و أرى امرأة ترتدي غطاء رأس داكن وتصرخ بالإنجليزية: صدّام حسين.. هتلر جديد.. إنه الغزو العراقي للكويت!

لا أعرف أي صفاقة اخترقَتْ تلك الأيام، كل ما أذكره أن الفلسطينيين هناك، كانوا فرحين بالمفرقعات والشعارات التي يطلقها النظام العراقي عن تحرير فلسطين، وإحياء البطولات العربية، كنت صغيراً على التفكير في الأمر، ولم أكن أستسيغه.. لأنني لا أفهم معنى لشيء مما حدث! وعندما عدنا إلى السعودية بعد انقضاء الإجازة، أصدرت الحكومة السعودية قراراً يقضي بتعليق الدراسة لحين انتهاء الحرب. لقد صار لدينا فراغ طويل، إذ ليس ثمة دراسة رسمية، كما أن الأنشطة التي كانت تقام من قبل جماعة تحفيظ القرآن قد توقفت لأسباب لم أعلمها في حينها، وكان علينا أن نشغل أنفسنا بما هومتاح..

لقد كان توقيت الحرب سيئا في كل شيء، فقد صادف أن اختلف والدي مع صاحب العمل، ولم تفلح تدخلات أحد لتجاوز هذا الخلاف، ورفَضَ صاحب العمل أن يمنحه فرصة العمل في مكان

آخر، مما يعني بقاءه لفترة طويلة معلّقاً، ترافق ذلك مع شبه انعدام لفرص العمل نظرا للموقف الرسمي تجاه غزو العراق للكويت، الذي اتخذته الحكومة الأردنية، كما منظمة التحرير الفلسطينية، فتضطر أسرتي إلى إنفاق المبلغ القليل الذي جمعته خلال أعوام من العمل في السعودية، من دون أن يكون لديها أيّ مصدر آخر للدخل! من الذي يصدق أن أرض السعودية لا تمنح رجلاً فرصة العمل فيها! الذين كانوا يعيشون خارجها، لا يعون تماما حقيقة الأمور، ولا يدركون كيف تسير الحياة هنا، جميع الذين يعيشون في الأردن وفلسطين، ومثلهم في الشام والعالم العربي لا يرغبون في سماع أخبار عن الجزيرة باستثناء أسعار النفط، ولا يصدقون أن في السعودية، مثلما في كل دولة في هذا الكوكب، أناس لا يجدون أحياناً حتى كسرةً ناشفة تقيم أودهم!

لم يكن أمامنا سوى إنفاق الوقت بلا جدوى، فلا الحرب وضعت نيرانها، ولا عرفنا متى تنتهي هذه الضوضاء، كنا نذهب إلى البحر كل يوم، عائلتي برفقة جيراننا الشوام. رجالا ونساء، يتحدثون في الحرب وغلاء الأسعار. الأطفال الذين لا يدرسون، يلعبون الورق حيناً، ويدخنون، ولو كان المكان الذي نجلس فيه خاليا إلا منّا، ارتفعت الأصوات بالغناء، لنشاركهم الغناء والرقص، نتناول الطعام والشراب، يلعب الأولاد كرة القدم، وتشاركهم البنات، يلعب الأولاد ألعاب البنات، يضربون بعضهم ويتصالحون، يحكون الحكايات، تقودهم (أم محمد) بأهازيجها الشامية.. كان هذا يحدث على كورنيش جدة،

كل يوم طوال فترة الحرب التي جعلتنا ننسى كل شيء فجأة، ونتذكر أنفسنا..!

كنت أشاركهم كل ما يقومون به، لكنني كنت أقتطع ساعة أو اثنتين من جلستهم المشتركة، لأختار مكانا نائياً عن ضوضائهم، وأغرق في القراءة.. وكنا بعد طلوع الشمس، ننتقل إلى بيت أحدنا بالتناوب، ليكمل الجميع ما بدأوه أوّل الليل، ولا تنفضُّ الجموع قبل ظهيرة اليوم التالي، لتلتقي مرة أخرى في الليل، وهكذا سارت أيام الحرب..

من فاجعات ذلك الوقت، أننا في أحد الأيام التي غضب فيها والدي، وقرّرَ عدم ذهابنا إلى السهرة اليومية، عقابا لنا، وبينما نحن نمضي الوقت في اختراع ما يشغلنا، تنطلق صفارة الإنذار الطويلة، مؤذنة بهجمة عسكرية قريبة. لن أنسى الذعر الذي انتابنا، ونحن نندسّ تحت طاولة الطعام ونبكي، كانت أمي تجمعنا كصغار البطّ إلى جنبها، في حين كان والدي يدخِّن، ويبحث في الراديو البنّي الضخم عما يؤكد صدق الإنذار، ليظهر مذيع القناة الأولى بعد ساعة، وبعد أن يكون قد جفّ دمنا في وجوهنا، ويقول إن صياح الصفارة كان خللا فنيا! لا أحد سيلوم المذيع لو أن قلوبنا توقفت عن العمل في تلك اللحظة..!

أفكر لو لم تقم تلك الحرب، هل كانت الأمور ستختلف؟ أي شيء لم يتغير فيّ؟ بل ما الذي تغير في نفسية الصبي من هذه الحرب؟ لم أكتشف سوى سلطة الكلمة التي تقال، فتغير أحوالا كثيرة، وإن كنت

أؤمن أن القوة هنا للكلمة لا للسياسة، إلا أن ذات الكلمة لم تكن لتحدث فرقاً لو قالها مشرَّد يطرق زجاج السيارات ليطلب ريالاً..!

عادت الأمور إلى طبيعتها مرة أخرى، ما بين المدرسة والشارع بناسه الهامشيين، وحلقة تحفيظ القرآن في المسجد، حافظت طوال مرحلة الدراسة الابتدائية على تفوّقي، وحصدتُ تفوقا مماثلا في كتابة القصص، لتصبح المدائح هي الإيقاع الذي تحبّذه أذنيَّ حتى حدث هذا: يطلب إلينا مدرس اللغة العربية كتابةَ قصة قصيرة في مادة التعبير، وكنتُ متأثراً بالمسلسلات العربية التي كان يعرضها التلفاز السعوديّ آنذاك، إنه الوقت الذي يسيطر فيه الصمت ، ساعة عرض المسلسل اليومي الكئيب غالباً، والحزين دائماً. هل كان المسؤولون في التلفاز يتعمدون غسلنا بالأحزان؟ هل كانت هذه الساعة تساعد في بناء روحٍ هشة متخاذلة؟ وإذ أغوص في باطن روحي لأستخرج الصور المسلسلاتية المغروسة فيها فإنني لا أجد إلا العزاء الداكن، والأحزان المتكوّمة مثل التلال الغامقة في أحلك ساعات الليل، بالإضافة إلى الجو العائلي المشحون بالبكاء ساعة الأخبار الفلسطينية اليومية، كان لهذا دور كبير في نمو حسٍّ شديد التأثر لديّ، يجعلني أبكي لمجرد الخيال، ومن ثمّ فقد كتبت قصة حزينة، يمكن تبرير أجوائها بما سبق من حالات السواد، عن أمّ يهجرها ولدها لتبكي وحدتَها، وأقدّمها لمدرس اللغة العربية، ولأنني بكيت كثيرا بعد أن أنهيت كتابتها (أظنني كنت أفكر على هذا النحو: كيف لهذا اللعين الذي اخترعتُ قصته أن يترك أمه على أي حال؟!) فقد رفضت أن

أرضخ لطلب المدرِّس بقراءتها أمام زملائي، لأن هذا سيؤدي إلى بكائي، وحتماً لن أقدم فرصةَ أن يراني مخلوق على وجه الأرض وأنا أبكي!!

أصرَّ الأستاذ على طلبه، فليس مقبولا من وجهة نظره أن يرفض طالبٌ تنفيذ أوامره! وواصلتُ رفضي، ما جعله يهدد بحرماني من الدرجة كاملة وإعطائي صِفراً في مادة التعبير، وكان هذا أحب إليّ من أن يراني طلبة الفصل باكيا، ثم لا يتوقفون عن الشماتة بي! هذا لن يحدث أبداً أمام عينٍ تشعّ منها الحياة! اتكأتُ على مبرري هذا وذهبت لوالدي مستنجداً به أمام جبروت أستاذي، لكنه، اتفق معه في الرأي، ورفض التدخل وطلب مني الالتزام بالأمر، فلم يبق أمامي حل إلا اللجوء إلى المدرِّس المشرف على فريق الإذاعة المدرسية، الذي علّمني كيف أقرأ من دون أن أبكي. كانت هذه الحادثة ذات أثر عليّ، إذ إن خوفي أن يراني أحد في حالة بكاء، أدّى إلى عدم بكائي أبدا، ومن ثقة مطلقة بأسرتي، ووقوفها إلى جواري، إلى فزعٍ نقر نقرته الأولى. لقد كانت هذه بداية شرخ في علاقتي بما أتوقعه من الآخرين، إذ للمرة الأولى أشعر أنّ عليّ أن أتصرف من دون الاستعانة بأحد، أياً كان الأمر، وأدرك أن ثمة أمورا تقتضي أن أفتش لها عن حل بنفسي!

لم تتوقف أسرتي طوال هذه السنوات عن ترسيخ مفهوم الغربة في أذهاننا، إننا أغراب، ومنقطعون عن هذا العالم، ليس لنا في هذه البلاد قريب ولا معين، ولا يمكننا الاستمرار في العيش هنا، هل

يمكن لنشرة الأخبار وحدها وصور الشهداء المنثورين كل يوم أن يخلقوا ارتباطاً بعالم لا أعيشه؟! أي المبررات يمكنه أن يشدّني إلى بلاد لا أراها، وأناس أحلّ عليهم ضيفاً كل عام؟! وهل حبّ أهلي لأرضهم مبرر كافٍ للطفل الذي كنته كي أحبها؟ لقد تكررت هذه الأسطوانة في رأسي أكثر من أغنيات السبعينات التي تكررت في بيتنا أثناء طفولتي، وكنت أنتظر بخوف اليوم الذي تقول أسرتي إنه قريب، اليوم الذي سنعود فيه إلى فلسطين، لنسكن القدس، في بلادنا كما يقولون. وطوال هذه السنوات أيضاً لم ننقطع عن الرحلة الصيفية كل عام إلى القدس، لنقضي وقتنا بالقرب من أهل أبي وأمي، ينفقان أغلب الوقت في تعليمنا ما لا نعرفه عن تلك الأرض، ويحاولون تقويم ألسنتنا بلهجة صرنا قليلي التحدث بها، ويغرقون في تذكيرنا بأننا في السعودية عابرون، عابرون.. وأنها مكان عابر..!

والذي أعيشه الآن لا يصدّق ما قالته أسرتي طوال هذه السنوات، فها أنا أحتمل الساعات السابقة لقراري الذي اتخذته بالخروج من فلسطين، وأنا في غيابة الوقت الذي يثقلني بالانتظار ممتلئ من يقيني بقرار العودة إلى السعودية، حيث جذوري المغروسة في البحر المالح، والتي كانت المرأة السمراء تمرر يدها فوق صورتها حين أوحت لها أفكاري أن الانتظار يجعلني متيبساً، فتنثر ملحه في الهواء قبل أن يلامس جسدي الذي ازدادت طراوته وبدأ يشعر بالبرودة! ورغم أن قشعريرة سرت في مسامات بشرتي، وأنا أشاهد نهاية السنوات الابتدائية في المدرسة، إلا أنني لم أستطع تحريك

أطرافي، ولساني ما زال مدهوناً بالصمت، الذي أقتسمه مع شريكة الانتظار السمراء، وهي ترفع ذراعيها فوق رأسها لتشبك كفاها، شادّةً معها جذعها الذي استطال، قبل أن يفترق ثدياها وينبلج صدرها عن كرة كربونيةٍ دارت حول الأفق الفاصل بيننا ورسمت خريطة للجزيرة العربية، تبعثرها الريح، ويلمّها صوتٌ مسافرٌ في العمق والعذوبة، فينطرح دبق الصوت فوق نثار الكربون، وتقترب الصورة مني لألتحم بها، وأشعر بالدفء، وعيناي مفتوحتان على بحر جدّة..!

(9)

كالعادة، وفي نهاية كل عام دراسي تفجعنا عائلتي بفكرة أننا قد نستقر في فلسطين ولا نعود. ولم يساعدني صغر سني على التفريق بين وعيد صادق ومجرد كلام للثرثرة: كيف يفكر هؤلاء الآباء؟ يغرسون أبناءهم في تربة يختارونها، ويعتقدون أن بإمكانهم، في أي وقت، أن يطلبوا تحويل الحصاد إلى تربة أخرى!!

لقد نجحتُ بامتياز في المرحلة الابتدائية، وهذا يبشر بانتقال ميسّرٍ إلى المرحلة التالية، وربما فرصة أكبر في اختيار مدرسة جيدة للالتحاق بها، الخيارات المتاحة تشير إلى المدرسة المتوسطة القريبة من بيتنا، وها أنا برفقة أبي، أحمل ملفي الدراسي ممتلئا بتفوقي الذي ظننته كافيا، ولا ينقصني إلا الدخول إلى مكتب مدير المدرسة لأثبت جدارتي بمقاعدها. اطّلع المدير على درجاتي، وهو يردد: ممتاز، ما شاء الله، يعيد الملف بكل هدوء، وثمة أسى واضح وحزن لا يمكن إخفاؤه وهو يقول: يعزّ عليّ ألا يكون هذا الطالب المتفوق أحد تلامذتي في المدرسة. لكنك تعرف، موجّهاً الكلام إلى أبي، النظام لا يسمح بقبول الطلبة الأجانب في المدارس الحكومية! شكره والدي، والإحباط يخطّ ملامحه، وخرجنا..!

أن تتوقف عند الصدمة، فهذا يعني أنك تتصرّف كما يجب، أما

أن تتجاوزها.. فهذا يعني أنك تكبر..! لم أفهم سبب رفضهم قبولي أنا المأخوذ باجتهادي! ما الذي حدث يا أبي؟ ماذا يعني أن الطلبة الأجانب لا يمكنهم الدراسة؟ هل سأجلس في البيت إلى الأبد؟! ألن أكمل دراستي؟ هل ستنفذون تهديدكم السنوي وتنتقلون إلى فلسطين للعيش فيها؟ هل هذا ما تنتظرونه لتنفيذ قراركم؟!

هل الفلسطينيون يا أبي هم الذين لن يتمكنوا من الدراسة؟ ماذا عن الحضارم واليمنيين؟ والطلبة السودانيين؟ هل سيكونون مثلي؟ ثمة أمور لا يتسع العقل الصغير لاستيعابها ومعرفة ما تعنيه، لماذا نحن أجانب؟ وكيف تشعر حين تكون أجنبياً؟! إنها الأسئلة التي شغلت العقل الصغير.. لكن الأب الكبير لم يجبه، فهمتُ في ما بعد أن على الأجانب، مثلي، البحث عن مدارس خاصة، أو توفير حلول أخرى غير المدرسة الحكومية، ولأن الطاقة المالية لأسرتي لم تسمح لهم بإلحاقي بمدرسة خاصة، فقد لازمتُ البيت أربعين يوماً من دون دراسة، ومن دون أن ألمح ما يبشر بأي تغيير في حياتي: ما الذي يمكن أن يقنعني في تلك السنّ الصغيرة أن عدم كوني سعودياً، يمنعني من مواصلة دراستي كما هو مفترض أن تسير الأمور!

هذه الصدمة هي أول ما خلق في داخلي فاصلاً حقيقياً بين انتمائي إلى الحياة في السعودية، وبين كوني معزولا عنها بسياج الجنسية الضخم! أصدقائي الفلسطينيون الذين يحملون الجنسية السعودية يكرهون المدرسة، ولم يكونوا على نفس درجتي من

التفوق، ورغم ذلك فإنهم يشغلون مواقعهم كطلبة في مدارسهم، بينما يصحو الأجنبي كل صباح، ينظر إليهم من النافذة وتذرف روحه ما لا تستطيعه عيناه من الحزن والألم. ينظر إلى إخوته الصغار وهم ذاهبون إلى مدارسهم، ويتساءل إن كانوا سيقفون في العام القادم إلى جواره على النافذة، أم أن ربّ بيتهم سيقرر تنفيذ العودة إلى فلسطين، العودة التي تشكل تهديداً حقيقياً لرغبتي في الحياة حيث نشأت، وحيث اعتدت أن أكون، وحيث ترسّخت جذوري الأولى من دون إرادتي، ومن دون يدٍ لي في أن أكون رغماً عني فلسطينيا أو سعوديا، لا فرق في الاسم، فالذي يلتصق بالمكان لا تعنيه الصفة التي يكونها، وكنت أفضّل حينها أن يرسلني أبي للعمل في صنعةٍ أتعلمها - كما بدأت الاقتراحات تسقط من حناجر الجيران والأصدقاء - على أن أعود إلى فلسطين، إنها العودة حين تصبح شبحاً يلاحقني في منامي وصحوي، العودة التي يصرخ بها آلاف الفلسطينيين الذين التصقت أرواحهم بأرضهم، لكن روحي ليست معهم، فقد التصقت بمكان آخر، ولا أمل في فكاكها..!

بعد مرحلة استمرّت أربعين يوما في العذاب اليومي والأحلام المزعجة والكوابيس الصوتية المكررة، عادت الأمور إلى حالها الأولى، وعبْر أحد أصدقاء العائلة، عرفتُ أن بإمكاني مواصلة الدراسة، كان ذلك بعد فوات ثلثها الأول، هذا يشير إلى أنني يجب أن أبذل مجهوداً عالياً للحاق بما لم أدركه، التحقت بأول مدرسة وافقت على تسجيلي، وبعد ثلاثة أيام تقرِّر إدارة المدرسة توزيع

بعض الطلبة على مدارس أخرى، فأختار مدرسةً ضمن ما أتيح لي، لأدرس فيها سنوات ثلاث، أظنها ستكون إحدى أهم المراحل في حياتي المدرسية.. بل حياتي كلها..!

توجَّب علي منذ البداية أن أتمّ ما بدأته، فظللت للأشهر المتبقية من الفصل الدراسي غارقا في الدراسة للتعويض عما مضى، وحين انتهت الاختبارات كنتُ الأول ضمن فصلي، والثاني على مستوى المدرسة، مما شكّل مفاجأة لإدارتها، التي كرّمتني من ضمن المتفوقين، وأصبحتُ محط اهتمام مديرها والمدرسين، وزملاء الفصل أيضا..

تعرفت في هذه المدرسة على جماعات الأنشطة، تقودني رغبتي في التمرد على ما ليس متاحاً لي، فانتميت لإذاعة المدرسة، وفريق الكشافة، وفرقة النظام المدرسي، وجماعة التوعية الإسلامية. ولاحقاً سيكون نشاطي مركزاً على هذه الجماعة، وسيتحول جهدي في بقية الأنشطة إلى قنوات دعم لمهامي التي أؤديها في جماعة التوعية الإسلامية كمتطوّع في نشر قيَم الجماعة وتنفيذ برامجها، وسيبهجني لاحقا أن أكون نائبا لرئيسها..!

يبدو أنني لم ألتحق بالجماعة قانعاً، وربما كان تأثري نابعا من الجو المحيط بي: أسرتي التي أعجبها أن أكون ملتزما دينيا، جماعة تحفيظ القرآن الكريم بالمسجد، ولأول مرة يتاح لي أن أختار عدداً أكبر من الأصدقاء أمارس وإياهم أنشطة بشكل ما، فلم يقتصر الأمر على الدراسة في حلقة التحفيظ والقراءة في مكتبة المسجد، فقد سمح أبي، بعد وساطة من إمام المسجد، أن أشارك في الرحلات التي

تقوم بها جماعة تحفيظ القرآن، وأصبحت مشاركاً في كل الأنشطة التي يقومون بها، بالإضافة إلى أنّ أحداً لا يمكنه مقاومة السحر الذي يبثه أفراد الجماعة بين من يرغبون في استقطابهم!

في تلك السن الصغيرة، وفي مرحلة الانتقال من العالم الصبياني إلى عالم الرجال، وحين يكون الإنسان حائرا: أي الطرق يختار؟ حيث لا أحد يوجّهه، ولا أسرة تغرس فيه سوى ما يهمها، من دون أيّ اعتبارات للشخصية التي يرغب أن يكونها هذا الصبيّ، سيكون سهلا إقناعه بتكوين شخصيته، أو تمييعها، ضمن إطار الجماعة التي تجيد ببراعة تحويل الأفراد الملتحقين بها إلى أشخاص واقعين تحت سطوة أفكارها، وسيتحول الأمر من التزام بأفكار الدين، إلى التزام بأفكار الأشخاص الذين يتولون رعاية هؤلاء الأغرار، ويكون لزاما على الفرد أن يتحول إلى إنسان آلي ينفِّذ فقط ما يُطلب منه من دون أن يعترض على حرف مما يقال له. إنها بهجة الفتوّة، و نزعة التغرير!

حوّلت جلّ وقتي وطاقتي باتجاه رغبات الجماعة، وبدأ مظهري في التحول، فارتديتُ ثوبا قصيرا، وأرخيت لحيتي التي بدأت في النمو متروكة على حالها، ولم أتخلّف عن المشاركة في كل المحافل التي تدعو إليها جماعة المسجد أو جماعة المدرسة، ورغم اختلاف المجموعتين وعدم انتماء الأشخاص ذاتهم إلى المجموعتين، إلا أنني اعتقدت بوحدة التوجّه ووحدة الفكرة، ما جعلني أفرح بانتمائي إلى الطرفين، لقد فعلت كل ما يفرضه التزام الجماعة، حرّمت على نفسي الأغنيات وكانت أحب شيء إلى قلبي، وقاومت كل النزعات

الفتية التي تقودني إليها أهوائي، طمعا في الحصول على الثواب، وإن كنت قد فعلت ذلك حفاظا على أن أكون ملتزما، إلا أني لم أشكك في ما يقوله الأساتذة، تصديقاً لمكانتهم، وفرحاً بالحظوة التي يحصل عليها المطيعون، كنت أحضر الدروس والمحاضرات، وأقتني الكتب والأشرطة المقترحة حيناً، والمفروضة أحيانا، وأشاركهم أفكارهم ورحلاتهم، فرحت كثيرا لأنهم اختاروني من ضمن فريق سيعمل على جمع التبرعات للمجاهدين في الشيشان، وأفغانستان، وفلسطين، والبوسنة والهرسك. ولم يكن عندي تشكيك في الهدف من وراء مئات الآلاف التي جمعناها في كراتين، من دون أي تصريح رسمي، وكنا نسلمها بعد كل عشاء إلى مؤذن المسجد. لم أكن أشك أنها ستتوجه إلى حرب الكفار وأعداء الدين! وكان يطيب لي ألا أفوّت اجتماع خير ولا مجلس للجماعة، ولا فكرة صادرة عنهم إلا وأكون من أوائل معتنقيها من دون أن أفكّر في صحتها من عدمه، ومن دون أن أفكّر بنتائجها..!

(10)

الشيخ أبو تيسير.. الاسم الذي عرفنا به مدرس التحفيظ ومؤذن المسجد، وإمامه غالبا، فلسطينيٌّ في أواخر الأربعين من عمره، كان يصرِّح بأفكاره الجهادية، ويعلّمنا أن من يعرف الحق فإن عليه أن يصدع به ولو في وجه السلطان، ذلك أنه في جهة الحق! يخبرنا بفخر أنه تعرّض للسجن عدة مرات بسبب ميوله وأفكاره المتطرفة، وأنه لن يتردد في تردادها ليسمعها العالم.. لقد كان مثالا للرجل المتطرف في كل شيء، ونموذجا بائسا لرجل الدين المغالي في تصرفاته، أذكر أنه صفع أحد الطلبة على وجهه حين جاء متأخرا إلى الدرس، فسقط الولد مغشيا عليه وأذنه تنزف، وحين هرعنا لمساعدته، هدَّدَنا بالعقوبة ذاتها! فتسمّرنا في أماكننا وبقي الولد ممددا على أرض المسجد نحو ساعة قبل أن يقوم خائفا باكيا، ليهرب من المسجد ولا نراه بعدها..!

لقد كان من نوعية مريضة يلذّ لها تعذيب الآخرين، لم يفوّت فرصة ليضرب طالبا بسبب أو بدون سبب. وكان يقول دوما: اخشوشنوا، فإن أمثالكم لن يحرروا أرضا مغتصبة، ولن يقدروا على حمل سلاح في وجه عدو كافر! كان هذا الرجل المليء بالعقد النفسية يخبرنا أن أباه أدّبه بالضرب، وأن علينا أن نُضرب بشكل مماثل لنصبح رجالا مثله! لم يكن يقبل أن يرى أحدنا يرتدي قميصا وبنطالا، فقد كان يعتبر هذا لباساً إفرنجياً، وأن المسلمين لا بد أن يرتدوا ثوباً فقط.. كان

يقول إن الدين لم يكن يوما اعتقادا أو عبادة، فليست الاعتقادات ذات فائدة إن لم تُنفَّذ، وكان يضرب مثلا على ذلك بتعطيل حكم الجهاد، ويحمّل الحكومات العربية والإسلامية الكافرة، برأيه، أسباب نكسة المسلمين. يبث فينا بكلماته الطنانة، وآرائه المرعبة من الحماس ما لا تفعله آلاف الجوائز! كان يخبرنا أننا جيل الناشئة الصغار سنكون آثمين إن سكتنا على هذا، مما سيحمّلنا العذاب وسوء الخاتمة، ثم سيكون مثوانا الجحيم بكل تأكيد! أعرف الآن أن أفكاره كانت تنم عن شخصية زائفة، عن قناع وليس عن معدن، فكل ما كان يقوله ويفعله، وكل ما يردده ويقودنا به كالقطيع، وحتى هيئته، ثوبه، ولحيته المرسلة، وشماغه الذي لا يرتدي عقالا فوقه، كلها لا تشبه شيئا مما كان عليه حين جاء إلى السعودية، وهو في العشرين من عمره، مدرِّساً للغة العربية قادماً من ريف فلسطين، مفتونا بعروض الشعر، متمايلا مع موسيقى أمواجه، يترنح حين يستمع إلى إيقاع الدبكة، ويعلّم الطلبة في مدارس السعودية ما قاله جميل بثينة فيها، ويردد ما بثه عمر بن أبي ربيعة في كل فاتنة هفّ لها قلبه، وينتشي كالجوارح حين يردد مواويل الريف وأحزان غربته. كان مفطوراً على الطبيعة قبل أن تُعمل مباضعُ التطرف فيه عملها، وقبل أن ينسلخ عن معدنه، ليبرق بأفكارٍ لا تنبع من عيون الأرض الفلسطينية، وإيقاعات لا تنبلج عن ضربة القدم في حلقة الدبكة!

تأثرتُ بهذه الأفكار، وحملتها في وجوه من مرّوا بي، لم أكن أجد حرجا في نصح كل من أراه، وكان يطيب لي أن أجد جماعة من

الشباب فأقتحمهم من دون سابق معرفة لأبدي لهم النصح، وأذكِّرهم بثواب الله وعقابه، كانت هذه البداية، لكن تطوّر الأفكار أخذ جانبا آخر، واصطدمتُ بأسرتي. بدأتُ بوالدتي التي أقنعتها بوجوب تغطية وجهها، ثم بوالدي الذي أعفى لحيته نزولا عند إلحاحي، كانا في البداية فرحَين بالتزامي هذا، اعتقادا منهما بخير أحمله، لكنني، بسبب أفكاري، حين تطاولت عليهم بالقول إنهم آثمون وكفرة إن هم أبقوا على نمط حياتهم الطبيعيّ، وأنّ علينا أن نقاطع جيراننا الفاسقين، وأصدقاء العائلة العصاة، لأن فلانا لا يصلي، أو لأن زوجة فلان تتحدث إلى الرجال بلا حياء، أو لأن أحدا منهم يدخن. وقفوا في وجهي رافضين أفكاري المتطرفة، وانقلابي ضد نظام حياتهم. عندها، أعلنت بيتنا مكانا لا تدخله الملائكة ولا تحلّ به البركة، وأن يوما ما سيأتي، وسيسخطنا الله بسبب معاصينا وآثامنا! وكان جفاء بيني وبينهم، ولا حديث إلا في ما صَغُرَ من الشؤون العائلية، وأنا أقضي وقتي أدعو الله أن يغفر لهم ذنوبهم، وأن يسامحهم على ما هم غارقون فيه من المعاصي!

أدّى انشغالي بالجماعة إلى تدهور مستواي الدراسي، وبدلا من المرتبة الأولى في الفصل، أصبحت الثالث عشر! جنّ جنون أسرتي، فهي لا تحتمل أن أقوم بكل بساطة بتدمير ما قضوا أعواما في بنائه، ولم تفلح محاولاتهم في إعادتي إلى ما كنت عليه، فالضرب المبرح الذي بدأ والدي به، وكل دموع أمي ودعواتها وصلاتها لم تغير شيئا مما أنا عليه، فقد كنت مؤمناً بصوابي، وراضيا بما قررته لنفسي.

أنني وحدي الذي أمشي في الطريق الصحيحة، وهم الضالون! لقد علّمتني الجماعة أن ما نعيشه ما هو إلا ضرب من الفساد، فالسماح بانتشار الأسواق، وعرض الأغاني في التلفاز، وانتشار محلات بيع الأشرطة الموسيقية، وكثرة الأسواق والمنتزهات، ما هي إلا خطايا كبرى لا يمحوها إلا شطبها وإلغاؤها، وأن كل ما يقوم به الناس من خير، لا يوازي واحدة من الكبائر التي يرتكبونها بحق الدين!

مما أقنعتني به الجماعة في وقتها، أن الدين لله، والأرض لله، وأن نظام الجنسيات الذي تستخدمه الدول الإسلامية، ما هو إلا تنفيذ للمخططات الاستعمارية الغربية، ومؤامرة صهيونية ضد الدين، وأن كل هذا ليس إلا مَسْخاً للهوية الإسلامية وطمساً لمعالمها التي حددها الدين. إذ لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، استنادا إلى النصوص الشرعية التي كانوا يؤولونها حسب أهواؤهم، مستخدمين الأدلة ذاتها على نحو مغاير، مناسب للموقف الذي يتورطون فيه! أذكر شابا صوماليا، كان ينتمي إلى جماعة التوعية، اشتكى يوما إلى المدرس المشرف على الجماعة من سوء وضعه والطريقة التي تعامل بها الدولة الأجانب، وكان المدرس يرد عليه بالإيجاب، ويقرّ معه بأن نظام الكفالة والإقامة ما هو إلا نظام عبودية مستحدث، وحين تدخّل مدرس آخر، لتبرير موقف الدولة بتنظيم أمورها، وضبط حركة الوافدين إليها بشكل عام، أجابه: قد نقبل بنظام مماثل لغير المسلمين، وقد نقبل أن نستخدم هذا النظام كطريقة للتضييق على الكفرة الأجانب القاذمين للعمل في السعودية، لكنه نظام غير مقبول مع إخواننا المسلمين الذين لا نعتبرهم أجانب! كانت هذه

الملاحظةَ الأولى التي نبهتني للتناقض الذي يدور بينهم، ورغم أني لم أسأله عن هذا التناقض، لثقتي بصحة كلامه في حينها، إلا أن شيئا من الشك تسرَّب إلى نفسي حيال صدق هذا المدرس! فكيف أصدق أن الشخص الذي كان يحدثنا قبل عدة أيام عن ضرورة طرد الكفار والمشركين من دار الإسلام، يتحدث اليوم عن ضرورة تمييز وجودهم بتسميتهم أجانب حينا، وبتطبيق نظام أوجدته الدولة لضبط أعمالها حينا آخر.. كان هذا غريبا عليّ، لكنّ السؤال بقيَ محشوراً في حلقي، ويقيني بصواب رأيهم يجعل سؤالي يندرج تحت صفة قلة الاحترام، إضافة إلى أنني كنت حريصا على الاستمرار معهم، فهم الوحيدون الذين يمنحونني فرصة أن أتحدث وأتميّز بشخصيتي، التي ابتكروها من خلال أفكارهم، في كل اجتماعاتهم، وربما كنتُ أخشى أن أكون وحيدا..!

السنوات الأولى لالتحاقي بجماعة التحفيظ منذ الصف الرابع وحتى إتمام المرحلة الابتدائية لم تكن أكثر من التزام ظاهر بالدين، من دون محاولة الدخول إلى عمق الجماعة، لكن المرحلة المتوسطة بسنواتها الثلاث، سحبتني بشكل كليّ إليها، فتأثرت بأفكارها وتطبيقها كما أرادوا لي أن أكون، لكنّ شيئا ما بداخلي طيلة هذه السنوات الثلاث، كان يعود بين فترة وأخرى، فيبهجني أن أتحرر من ذلك الصمت عنه، هكذا، وعلى فترات متباعدة، وبسرّية عالية، كنت أستمع لأغنية أحبها! كنت أحتفظ بشريطين خبّأتهما في مكتبتي، خلف عشرات الكتب الدينية، وبين مئات أشرطة المحاضرات والخطب، (حبيبتي من تكون) لعبد الحليم حافظ، وشريط آخر فيه مجموعة

أغانٍ لفيروز، كنت ولا زلت مفتونا بالموسيقى، وبكل صوت عذبٍ وحرّ. كنت أهرب من الرعب الذي تبثه الجماعة عن الحياة والتعلّق بما فيها، أهرب من وجه مدرس التحفيظ العابس دوما، ومن المشاكل الصغيرة القذرة التي تخلفها مصالح من ينتمون إلى هذه الجماعة. كنت أجلس وحيدا إلى صوت عبد الحليم (فحرصي عليكِ ،كحرص نفسي على الحياة لكي تطول) لم يمنعني شغفي بما أستمع إليه من أن أعتبر نفسي عاصياً. لكنني كنت ضعيفا تجاه هذه المعصية، لأقوم بعد أن أنتهي وأنا أدعو الله أن يغفر ما اقترفته من الإثم!

لقد كان أثر هذه الأغنيات منفذي إلى الحياة، ففي حين بدأت أشعر بالضيق الذي تحدّني به الجماعة، ولو كان ذلك تحت شعار أننا نحمل لواءً نبيلاً، كان صوت فيروز وحليم يتسللان إليّ باستمرار، ولم أعد أمتنع عن الدندنة بيني وبين نفسي، ثم بصوت مسموع أحياناً، إذ لم أكن أجد في الدين ما يعارض حب الموسيقى. رحت أبحث عن أحكام الموسيقى والغناء. وعلى النقيض من الأفكار المتطرفة التي تُصِرُّ على حرمتها، وما تتبنّاه لي الجماعة التي كنت أنتمي لها، أيّدتُ روحي على فتوى لا ترى فيها الحرمة، واقتنعت بأنها لا يمكن أن تتعارض مع ما أنا عليه من تديّن. وتحدثت مع أحد أساتذتي لأعارض رأيه بمساوئ الموسيقى، ما أدى إلى غضبه وبقية الجماعة، الذين فصلوني من اجتماعاتهم وطلبوا بدورهم من طلبة الجماعة مقاطعتي بسبب فكرتي عن الموسيقى!

لم أكن، بعد مرور ثلاث سنوات على انتمائي لهم، راضيا

بالنتيجة التي وصلت إليها. وكنت أحدّث نفسي: إنه ليس شرطا أن أكون معهم لأكون متدينا، يمكنني أن أمارس تديّني من دون الحاجة لهم، فانسحبتُ. ورغم أن أحد حوارييهم جاءني مطلقاً تهديداً تافهاً بوجهي، لكنّ لا مبالاتي لم تتغير، ولم أجد رداً أبلغ من إطلاق ابتسامة في وجهه قبل أن يمضي مهدداً إياي بما لا تحمد عقباه!

نحن مفطورون على الخوف، مطوَّقون به، يقف الخوف دافعاً وراء تصرفاتنا وكلماتنا، هكذا كنتُ، وقادني الخوف من الجماعة وتهديدهم إلى إبلاغ أسرتي بانسحابي، ورغم أنهم حاولوا عدة مرات الوشاية بي إلى أبي بسوء سلوكي، وتغيّر منهجي، ورغم أنه فرض عليّ العودة لهم مرة أخرى، إلا أنني لم أحمل الرغبة الكافية للاستمرار، وكنت أثق بانتهاء المرحلة التي تربطني بهم، وهكذا كان. لقد فقدت حماستي وكان ذلك آخر فاصلة في علاقتي بالجماعة، وهي التي لم يكن همها سوى العمل على تدمير شخصية الفرد بجعله تابعاً، خاضعاً منقاداً.

إن كان ثمة ما كان مفيداً خلال هذه الفترة، فهو يقيني أن الجماعات، أيا كانت، لا تسمح لإرادة الفرد بالعلو على إرادتها، ولا تسمح للموهوب أن يعلو صوته بداخلها، ما لم ينعق بصوتها.. وإن استفدتُ شيئا آخر، فإنه بكل تأكيد لغة جميلة، وامتلاك معارف يفوق ما حلمت به. مرّت المرحلة المتوسطة بتفاصيلها هذه، وأشياء كثيرة تغيرت بي، لكنني في نهايتها نجوت بنفسي من تسلط المحيطين بي، ولم أسمح لأحد أن يورطني في خياراته، ولن أترك فكرة تعبث بي بدون أن أقرر ما أرغب العبث به، ومنذ تلك اللحظة صرت أكثر

حرصا على التدقيق في اختياراتي، فبعد أن فقدت التفوق في دراستي، لم تسعفني الفترة البسيطة المتبقية على استعادة ما تلاشى، وما كان مكتوباً على الشاشة باللون الأحمرِ صار شفافاً، وتلاشى أيضاً، وظهرَتْ على الشاشة صورٌ لم أفهمها: جبلٌ له لحية! ورجلٌ يُخرج من فمه حبل غسيل لا ينتهي طرفه، وأناس يسيرون إلى الوراء بشكل طبيعي ومنتظم، وكانت المرأة السمراء متخذةً وضعية الصلاة، لكنها ما كادت تكبّر وتضع يديها على صدرها حتى انطلقت في غناءٍ فاتنٍ وشجيّ قبل أن تسلّم تسليمة واحدة على يسارها وتذرف من لسانها دمعة سقطت على الأرض، فاتخذ جسد الأرض تقسيماتٍ متعرجة!

يحدث هذا في آخر مرةٍ رأيتُ فيها جسر الجنرال أللنبي، الذي يربط الضفتين، منذ أكثر من خمسين عاماً، مثل قدرٍ لم يختره أحد! وعلى الجهة الإسرائيلية منه، خروجاً باتجاه عمّان، كنتُ لا أزال محمولا على الهواء، وتسري في جسدي رعدة الفجيعة والبرد، قبل أن أرى اسمي يسدّ ما بين السماء والأرض معقوداً إلى ستمائة ألف شجرة، وتحت كل شجرة يرفرف زوج من البواشق بحركة بطيئة، قبل أن تصير الأشجار رماديةً وتلتحم بالأفق، وتتحول أجنحة البواشق إلى معاول! إن تضرب في جسدك مزقتكَ، وإن اتقيتها تركت آثارها عليك، إنها المعاول.. لكنك صلب والحزن لا يهدّك!

(11)

المرحلة الثانوية، عالمٌ مختلف، وبوابة إحباط عظيمة، فكما ضيّعتُ أربعين يوماً قبل بدء دراستي المتوسطة، لأنني لا أحمل الجنسية، يتكرر الأمر في المرحلة الثانوية، وألازم البيت شهرين بلا دراسة، ومرة أخرى لم يتمكن أهلي من إرسالي إلى مدرسة خاصة نظرا إلى تكاليفها التي لا يستطيعون تحمّلها، كنتُ خاليا إلا من نفسي، وما تحمله لي الكتب القليلة..

مَن الذي يستطيع أن يعرف شعور طالب في الصف الأول الثانوي، يصحو كل صباح في موعد المدرسة، وينزل إلى الشوارع لمراقبة الطلبة الذاهبين إلى مدارسهم، ويتحسّر على نفسه، ويعود ليلعن الحظ الذي جعله يجلس في بيته عاطلا!

مَن الذي يدرك كم كان هذا مؤلما وقاسياً جدا، خصوصا بعد أن أخبرني أحد معارف أبي أنّ بعض الأجانب ممن لديهم واسطة أو علاقة ما بمسؤولين، استطاع أن يلحق أبناءه بإحدى المدارس الحكومية.. لقد نقمت على الحياة في ذلك الوقت، وعلى أسرتي التي لم تسعَ لكي تكون ثرية، وقناعاتهم السلبية تجاه علاقات اجتماعية هامة، كان لها أن تنقذني من البقاء عاطلاً. كنتُ مهيأً لفعل أي شيء، ولولا ما بقي من التزامي الديني، وقليل من الوعي الذي زرعته الكتب في رأسي لكنت شخصا آخر شخصاً سيئا في الغالب. وإن رافقتني السجائر سرا، فإنني نجحت في الحفاظ على هذا السر للسنوات المقبلة!

كان سهلاً أن أندمج في عالم من الانحراف والإدمان ورفقة السوء، لكنني لم أفعل، واستطعتُ التفريق بين ما هو متعة مقبولة وبين ما يؤدي إلى التلف، وظللت محافظا على توازني في الفراغ الذي كنت أسقط فيه، من دون أن أترك مجالا لسوسة الوقت أن تنخر روحي. لقد رأيت البعض ممن هم في نفس حالتي، فلسطينيون، أجانب، لا يذهبون إلى المدارس، ولا يهتمون للعالم الذي يحيطهم، يغرقون في ملذات التلف، ولم يستطع ذووهم أن يجبروهم على فعل شيء نظراً للإحباط الذي يغرقون فيه، فلا يترك فرصة لعيش حياة طبيعية، الإحباط الذي يشحذ مخالبه صباحا، وقت الخروج إلى المدارس، ليطعن رقاب العاطلين، ويدميها!

ألست أعيش هنا مذ ولدت؟ ألست حاملاً لفيروس الهَوَس الذي يحمله كل سعودي تجاه أرضه؟! عدوى الأرض التي تسري في دمي، وأعصابي. ألستُ عصيّا على التفريق بيني وبين أبناء البلد، ولولا دفتر الإقامة المزعجِ لما استطاع أحد اكتشاف الفرق بيني وبين أي سعوديّ في جدة؟! لماذا لا أحصل على الجنسية السعودية كما يحصل الكولومبيون على الجنسية الأمريكية؟! أو كما يحصل المغاربة على الجنسية الفرنسية؟! ما يمنعني من أن أكون قطعة من الأرض التي تحملني؟!

لا جواب لهذه الأسئلة. ولم يكن يقنعني الصمت في ذلك الوقت: كان عليّ البحث عن إجابات، هي وحدها فقط القادرة على إحيائي!

بعد انقضاء شهرين فارغين إلا من حيرتي وأسئلتي، وفي ما يشبه

المعجزة: يتوسّط لي أحد معارف أبي القليلين جداً، وهو فلسطيني يعيش في السعودية منذ أربعين عاما ولا زال فلسطينياً حتى في عطاسه الذي لا ينقطع، لأدخل المدرسة الثانوية، فأبدأ مرحلة جديدة،لم ينفع معها كل الجهد الذي بذلته للّحاق بركب الطلاب الذين سبقوني، فتمرّ سنتي الدراسية، أو ما تبقى منها، وللمرة الأولى، لم أنجح في الدور الأول! لقد كانت كارثة حقيقية على مستوى العائلة، فلم يحدث أن وصلت إلى هذا الحد من عدم استحقاق النجاح، وحين سافرت في إجازتي السنوية إلى القدس، لم تستوعب الأسرة الكبيرة ما حدث، فالفلسطيني المغترب، لا بد أن يكون ذئب نجاح دائم، وعاصفة تفوّقٍ هائجة! لم تكن المسألة أكثر من خوف لم أعرفه، حتى أنا فوجئت بحصولي على علامة شبه كاملة في اختبار المادة التي لم أنجح فيها، وانتهى الأمر ببساطة، حيث انتقلتُ للسنة التالية التي أقرر فيها مصيري، أو مصيراً يريده غيري!

لا أذكر متى بدأت التفكير على هذا النحو، لكنني كنت أرى صورتي: رجل أعمال ثري ومشهور، يرتدي بدلة سوداء ثقيلة القماش محكمة التطريز، ويشعل سيجارة وهو يجلس فوق أريكته الجلدية البيضاء، وينظر من نافذة بيته المطل على شاطئ هادئ، يسحب الدخان بنشوة المنتصر بعد أن ينتهي من كتابة نصِّه الجديد الذي أحبه! منذ تلك الأيام، ولديّ يقين راسخ أنني لا أستطيع إلا أن أكون هذا الذي أراه، صاحب عمل وحرف، تغريني قصص الناجحين، ويذهلني رجال الأعمال، الذين يصرون على أن يحققوا كل ما يحلمون به مهما

خالفتهم العقبات، إنهم لا يعملون لكي يتجنبوا الخسارة، بل يحوّلون كل فرصة عابرة إلى حكاية يتداولها الناس، يشبعون رغبتهم بالنجاح من خلال تحقيقه، مثلما ينتشي الكاتب بكتاباته ونصوصه حين يقرأها الملايين، وتترجم إلى لغات العالم كله، وتماثل في نجاحها ما حلموا به في صباهم. ورغم التضارب العنيف بين ما أحلم وأفكر به، وبين واقعي الذي عشته، كنت رسمت خطواتي بهذا الاتجاه، الذي يجعلني رجل أعمالٍ ناجح، وكاتباً مذهلاً في الوقت ذاته! وكنتُ من خلال ما أعرفه، أدرك أن العمل لا يرتبط بالضرورة بالدراسة، فأغلب الناجحين الذين عرفتهم لم يكملوا تعليمهم، ولم يكن لتخصصات بعضهم الدراسية صلة بأعمالهم القائمة، لذلك، قررت أن أؤجل الشروع في العمل حتى أتمّ دراسةً لا علاقة لها به، وقررت أن تهبط أحلامي الجامعية في القاهرة، حيث معهد الموسيقى!

لقد كانت رغبتي صادقة، وكنت سأبذل أي جهد لأحصل على فرصة دراستها، وبناء على حلمي فإنني لم أكن أرغب بالتوجه إلى القسم العلمي، لكنّ رغبة عائلتي وسخطها عليّ كانا أقوى من حلمي بدفاتر اللحن، وكان لهما أن يقررا نيابة عني أن أتوجه للقسم العلمي، مما يعني تعباً ليس من اختياري، ودراسة لست ميالاً لها..

في السنة الثانوية الثانية، لم يشغلني إلا الموسيقى والقراءة، شغف يتعالى بموسيقى محمد عبد الوهاب لا تفسير له، وشغف أكبر بكل ما يقع تحت يديّ لنزار قباني، وحيث إنني لا أعثر بسهولة على كتبه وقصائده، فقد لجأتُ إلى تصوير ما أجده منها، والاحتفاظ به في

أدراجي. وبالرغم من أنني كنت أكتب شعرا محكياً، لم تكن هذه مشكلتي أبدا، ولم أفكر يوماً بالكيفية التي أكتب بها، لقد كنت أكتب، وأفرح بما أكتبه، وأعرضه على كل من يتعثر في طريقي، يفهم الشعر أو لا يفهمه، يحبه أو لا يحبه: على كل من يعرفني أن يدرك أنني كاتب عملاق، وأنني أملك ما لا يملكه الآخرون، الذين كان رأيهم يعنيني أكثر مما يعنيني صدقي. وها هي إدارة المدرسة توافق أن أقدم قصيدة في إحدى احتفالاتها فتنفجر الأكف بالتصفيق، ويفخر مدير مدرستي أن في مدرسته طالبا شاعرا، كل هذا كان من شأنه أن يشحنني لأبذل الكثير تجاه موهبتي التي اعتقدت أنها تميزني عن الآخرين!

ثمة رجل عصيٌّ على المحو، فالشرارة التي أشعلها هذا الرجل في رأسي ما زالت تكبر، كان مدرساً للغة العربية في مدرستي، لم يدرّسني في يوم من الأيام، لكنه بعد أن اطلع واستمع إلى ما أكتبه، كتب لي رسالة نصحني فيها بترك الكتابة بالمحكية، والاتجاه إلى الفصحى، وحين أبديتُ احتجاجاً على تدخله في مساري الإبداعي، سحرني باللغة، كان كمن يدفعني باتجاه شيء أنا أريده، لا هو. وبقدر مجابهتي له في البداية، ثم وضعي للحواجز، وعدم اقتناعي بكلامه إلا أنني وجدت نفسي أستجيب للمغريات التي وضعها أمامي، أو على الأصح التي كانت أمامي ولم ألتفت لها.. الفصحى!

لم أفكر أن أكتب قصيدة فصحى، كان أمراً مستحيلاً! وكيف ذلك.. كيف؟! عرض عليّ أن يعلمني وزنا واحدا من أوزان الشعر، وقال إنني سأنطلق بعدها كالشهاب في سماء اللغة، وهكذا كان: مستفعلن

مستفعلن مستفعلن.. واجتهدتُ في تعلّم العَروض، أنفقت وقتا كثيرا أقرأ الشعر القديم، منتقلا من بحر إلى بحر، ومن قصيدة إلى أخرى، ومن تفعيلة إلى تفعيلة، درست العَروض بشغف، واتفقت بداية مع مدرِّس لغة عربية ليلهمني اكتساب مهارات اللغة والعَروض، لكنه أراد أن يفرض مبادئه على كتابتي، فتركته وآثرت أن أعلّم نفسي بنفسي، فازداد العلم مشقة، إلا أن حبي للموسيقى، كما أظن، قد خفّف عقبة التعلم، وجعل أذني أكثر قدرة على التقاط الوزن، واستيعاب تفاصيل التفعيلة وبحور الشعر. هذا ما فعلته بي الموسيقى!

لقد تخليت عن النصوص المحكية التي كنت أهذي بها على رؤوس الجميع، وامتلأت بالنص الفصيح، النص الذي يحقق لي وجودا أرحب، وأفقا أبعد مما يمنحني النص المرتبط بمساحة جغرافية محددة..

طوال هذا العام، لم تكن الدراسة في قائمة اهتماماتي، ولم يكن لها نصيب سوى النوم في وقت المدرسة، والإهمال خارجه، انعكس رفضي للتخصص الذي أدرسه على حياتي كلها، فلم أعد طالباً مجتهداً، ولم ألتزم صفوفي الدراسية إلا تلبية لرغبة عائلتي، ولو عاد الأمر لي، فإنني كنت سأقرر اختيار التخصص الأدبي الذي حُرمت منه، وكان طبيعياً أن أتحول إلى مشاغب في المدرسة، ونائم في أغلب وقتها. ولا زال وجه مدرس الرياضيات يلوح في خيالي وهو يطلب مني احتراماً لشخصه التخلي عن النوم في حصته، تاركاً لي حرية الالتزام بالدرس من عدمه. وما زلت أذكر المحاولات

الفاشلة التي قام بها مدرِّس الفيزياء لتغيير تعاملي مع منهجه الذي لا أطيقه، وكذلك فعل بقية المدرسين، إلا أن جهودهم باءت بالفشل، فالفلسطينيّ الذي بالكاد تمكن من الالتحاق بالمدرسة الثانوية، وكان يندب حظه كالعجزة بالأمس، أصبح يركل اليوم ما يقدّم له لكي يهتمّ بمستقبله وحاضره، ويواجه بالرفض كل تدخل من المدرسة والأسرة لتقويمه، هل كان هذا ما أجيده تعبيراً عن احتجاجي؟! ربما، لكن انشغال الفتى الذي يحب الفن وإقباله بنهم عليه، جعله لا يلقي بالاً لشيء، والتفتَ إلى ما يظنه أكثر جدارة بوقته، فكانت الموسيقى، والقراءة، والوقت الضائع مع من كانوا أصدقاء وما هم بأصدقاء، والسهر أياماً وليالٍ بصحبة المراهقات أمثاله على الهاتف، يقرأ لهم شعراً، ويمتدح أصواتهنّ، وأجسادهنّ المموّهة التي رآها ترف تحت العباءة وهو يناولها رقم هاتفه في مركز تجاري، أو شارعٍ يضم مدرسة بناتٍ ثانوية، هل أصبح الفلسطيني الذي كان يُفترض به العمل بجهد على تغيير حياته عابثاً؟! ولم يعد يشغله إلا بكاء الصبايا اللائي يبحثن عنه! ويبحثن عما يرغبن في أن يسمعوه عن أنفسهنّ من لسانه! كل هذا وأكثر، قبل أن ألتقي عطا، الفَلْسُعوديّ، كما أصبحت أسمّي كل السعوديين الذين يعيشون في السعودية وهم يحملون جنسية فلسطينية!

(12)

في منتصف عقده الرابع، ملامحه ملفتة للغاية، ومزعجة أيضا، لا يوحي إليك بشيء من الود إذا نظرت إليه، ولا يوحي لك بإمكانية إنشاء صداقة وطيدة مع هذه النوعية من الأشخاص، خاصةً أنه حين ينظر إليك يرسل لك عبارات من قبيل: لا تقترب مني، أنا أسوأ مما يخطر ببالك، نعم إنّ بي شيئا غريبا وغير مريح، وأنا أريدك أن تصدِّق هذا..! فماذا يمكنني أن أقول عن عَطَا؟! وكيف أصف معرفتي الطويلة به؟!

نحيل جدا، جلد على عظام وعروق، أشهبٌ وشعره يميل إلى الحُمرة، له عينين حادّتين كما لو كانتا عينا نمرٍ متوثب، لا يرتدي إلا الزيّ السعوديّ كاملا كأنه مدعو إلى مناسبة، ونادرا ما تراه حاسر الرأس، هجر أبوه قطاعَ غزة واستقر في السعودية عقب نكبة 1948م، استطاع أن يبني لنفسه اسما كبيراً في عالم المعمار والمقاولات، وصار واحداً من أشهر مقاولي جدة، عاصمة فلسطينيي السعودية، كما يقول عَطَا، ورغم أن الأب تزوج سبع مرات وأنجب ما يربو على ثلاثين ولداً وبنتاً، إلا أنّ مردود عمله كان كافياً لتعيش عائلته حياة مترفة، وسعة مالية تلمسها في جميع أفرادها، وطالما أن المال يعني التمدّد واتساع العلاقات الاجتماعية، فقد كان من نصيب عَطَا أن يرافق الأمراء والشيوخ، ويصادق أبناء الطبقة الثرية من المجتمع

السعودي، وبالرغم من الفرص المتاحة له للحصول على الجنسية السعودية في حينها، كما فعل كثير من الفلسطينيين الذين كانوا أقلّ منه اقتداراً وغنًى وامتداداً، إلا أنه لم يفكّر في الأمر مطلقا، ويعلل ذلك بكونه تلميذا مطيعاً لنصائح أبيه، وأحلام العودة المغروسة في خيالات نازحي 48م، وأنه لو علمَ ما ستؤول إليه حاله لما تردد لحظة في الحصول عليها، لكنّ اعتزازه بقضيته، واعتداده بكونه فلسطينياً حجب عن عينيه مقبلَ السنوات..

رسّامٌ فاتنٌ، كانت طريقته للتعبير عن ذاته، بالرسم على الأوراق والجدران، وعلب السجائر والمناديل الورقية، وعلى يديه إن لم يجد ورقاً، ويحتفظ بكل ما يرسمه في غرفته، ويقول لي: بعد أن أموت سيصبح من السهل على عائلتي أن تستعيد ثراءها مرة أخرى، لوحاتي عالمية، تشبه ما يخطه مجانين الرسم في العالم!

لقد استفادت عائلته من الطفرة الاقتصادية التي حلّت على ساكني السعودية وأهلها، وأصابتهم منها وفرة هائلة كانت كفيلة بأن تمتلك عائلته عدة منازل في جدة، ومثلها في مصر والأردن، إضافة إلى العديد من العقارات والمزارع التي تدرّ لهم دخلاً يمنحهم حياة كريمة من دون أدنى جهد. لكنّ السيناريوهات لا تتبدل إلا قليلا، والمخرج يصر على تكرار الحكاية مرة أخرى، إذ يموت الأب، ويشتعل الصراع بين أبناء النسوة المختلفات، وتشرع كتيبة الأبناء في تفتيت البنيان الضخم الذي أسّسه الأبُ، صمامُ الأمان الذي انفجر في وجه الجميع! يخبرني عن ذلك: كل الأمور تمّت بسرعة، أصبح إخوتي

مبعثرين في كل مكان، ولم يعد البيت الكبير الذي ضمّهم صاخبا كما كان، يلتقي الأخ بأخته أو أخيه فلا يسلّم واحدهما على الآخر، وتنشب بينهم خلافات قد لا يفضها إلا تدخل الشرطة أحياناً..! أما هو، فقد آثر أن يبتعد عن الخلافات، وأن يكتفي بنفسه، بكؤوسه الصفراء، وسجائره المليئة بما يتلف الدماغ! حتى أصدقاؤه المَلَكيّين والأثرياء تركهم، وظنَّ أنه لا يليق بهم بعد أن تدنّت حالته المادية..

عمل! هذه ليست إحدى مصطلحات قاموسه، فهو لم يضطر يوما للعمل. ومن كانت هذه حاله فلا بد أنه قد استبقها بفشل ذريع في الدراسة، فصار عالةً على هذا الكوكب يقضي حياته على ما تأتي به الأيام!

من يختار طريقا معتمة فليس أن يعترض على تعثّره بسبب قلّة الضوء، ومن يرفض الوقوف على رجليه فإنه لن يمشي أبدا..! ولأنّ عَطَا لا يجيد إلا الوحدة والتلف، فقد وجد فيه باعة المزاج هدفاً جيداً لهم، فطالما هو غير قادر على الوفاء بما يحتاجه من المال لينفق عليه، فإن الترويجَ عملٌ لا يحتاج خبرة ولا شهادات عليا، بل يحتاج مدمناً معدماً يريد أن يشبع مزاجه وحسب، فصار، باختياره، مروّجاً للممنوعات، ضاربا بالقوانين عرض الحائط وطوله، وقد ظنّ في بادئ الأمر أنه سيصيب الثراء بسبب عمله المحفوف بالمال والمخاطر، لكنه، وهو صاحب المخططات البائسة والأفق المسَوَّر بالخوف، ظل في حال متردية، لأنه صادقٌ حدّ البراءة، وكريمٌ كرمَ الشياطين، ومغروس في قلبه أن يظل شامخاً رغم رداءة بضاعته. و

صاحبَ المعالي الفلسطينيّ لا يقبل أن يُداسَ طرفه ولو بمزحة! ولأن أوراق إقامته الرسمية التي يجددها مرة كل خمس سنوات، تجعله يلزم البيت ولا يغادره إلا قليلاً، خوفاً من أن يُرمى في سجون الترحيل ويُنسى هناك، رغم أنه يردد: أنا فلسطينيّ لا يمكن أن يرحّلني أحد عن السعودية، يمكن للحكومة أن ترحلّك- يقول لي- وتقذفك إلى عمّان بسبب جواز سفرك الأردني لو أقدمتَ على ما يدفعهم لذلك، أما أنا حامل وثيقة السفر المصرية، فلا يمكن أن أغادر السعودية! إنه يتشدق بهذا، لكنه لا يكمل كلامه أمامي كما يكمله مع نفسه: وأين تذهب لو أردتَ يا عطا؟! لن تستقبلك أية دولة، ولن يكون مرحّباً بك في كل بقاع العالم فلا أحد يرغب باستقبال الفلسطينيين، فلسطين ليست لك، وبيتكم الذي ما زال مغلقا في غزة، والذي أكل الدهر وشرب على مفاتيحه التي ورثتها ليس لك أيضا، أين تذهب أيها الفلسطيني الناحل الذي لا يجيد إلا التباهي بفلسطينيته، وفلسطين لا تجيد أن تضمك في ترابها لو تخلّصتْ روحُك من جسدك!

أهل غزةَ مكتنـزون بالنبل والمَرْجَلة، ودماؤهم مثل تنّور لا يتوقف فورانه، ولأن سوق المروّجين لا تتوافق وهذه الصفات، إذ تتطلب دناءة عالية، وخسةً أصيلة مطبوعة في نفوس العاملين فيها، فإن عَطَا فشل فيها، وظل لاعباً خاسراً على الهامش، لكنه لا يفتأ يحاول: ستصلني شحنة من خمسمائة كرتون ويسكي، أظنها ضربة العمر، ثم يفشل! أو: أحدهم اشترى خمسين كيلو من الحشيش، سأشاركه بالنصف. هو اشترى وأنا أروّج، وستنتهي دوامة معاناتي هنا، وأيضاً

يفشل! ويستمر في عيش أحلامه التي لا يصدقها، لقد حاول مرة أن يعمل، وقرر بمبلغ زهيد أن يفتح مطعما صغيرا، لم تكن الفكرة سيئة، وكان بمقدوره أن يخرج ناجحا ويستمر، لكنّ قلة صبره على العمل، وانهماكه في تدخين الحشيشة وإدمان الكحول، كانا عائقاً حال دون نجاحه، فوأد مشروعه الصغير وعاد إلى وحدته، ثم قبل بوظيفة مكتبية مقابل أجر بسيط، لكنه لم ينجح أبدا في الصبر على الالتزام، فعاد إلى الترويج آملاً أن ينجح في هذه السوق الخطرة! لكنّ هذا لا يحدث، ولن يحدث! لأن دواخله خائفة وفي قلبه رهبة، ولأنه مشغول أكثر بأمه العجوز التي يقف على علاجها، وهو يرفض أن يعالجها بأمواله التي يحصدها من بضاعته، لقد ظل مزروعاً على باب غرفتها مثل شجرة زيتون، يناولها دواءها وطعامها، يضبط موسيقى يومه على دقات قلبها المريض، وتقلبات ضغطها، يتشبث بكل فرصة تمنحها مزيداً من الحياة، ويتمنى لو أنهما يموتان سويا، يقول وهو يضحك ضحكة مُرّة: لو متُّ قبلها فإنها ستقضي بقية حياتها بحسرة موتي، ولو ماتت قبلي فلن أجد سبباً لاستمرار حياتي، ليتنا نموت في اللحظة ذاتها!

ألم أقل إن السيناريوهات لا تتبدل؟! لقد ماتت أمه قبله، وتركته لسبب لا يدركه يواصل حياته، يصحو على أمل أن يصير ثرياً، وينام وهو يلعن كل شيء، ليصحو في اليوم التالي باكياً، على أمل أن يصير ثريّاً..!

كنت أنظر إلى عينيه الدامعتين، والمرأة السمراء تمدّ يدها وتمسح

دموعه قبل أن تضغطه مثل عنبةٍ فيختفي! أخذت المرأة السمراء تتحدث إليّ لأول مرة مذ جاءت وعزلتني عن العالم، هنا في الجسر، حدثتني عن طينة جسدها التي قالت إنها مأخوذة من أرض في إفريقيا القديمة، لم يعد لها أثر بعد أن تغيرت ملامح الكرة الأرضية على امتداد عمرها وافتراق قاراتها وتلاحمها، ثم اقتطعت قطعة بحجم قبضة اليد من فخذها، وأخذت تعجنها وهي تقول إن في هذه العجينة صورة مختبئة لي، واكتشفتُ أنني قادر على الكلام حين سألتها عنها، ولم يبدُ سؤالي مهماً، فانطلقت تردد تعويذة بلغة تبدو إفريقية أيضاً، جهلتُ لفظها، وتعثرت في فهم معناها الذي أخبرتني أنه منقوش على كل روح: وهي الأرض للأمّ الأولى، والنازحون عن شقوتها يهربون إلى الأراضي البور، يعجنها الوقت في آنية من النار والدمع، وهم غارقون في نشوة الألوان والصفة، أيها الأبناء الضائعون في البراري، أيها الباحثون عن المطر في البادية، أيها الخائنو قراكم البدائية وعجينة أرواحكم: ادخلوا في اللهيب، فهناك تستوي جلودكم وتصير سوادا..!

(13)

بعد عام خامل قضيته في السنة الثانوية الثانية، ونجاحٍ عسيرٍ ما كان له أن يحدث لولا الكتابة، ولولا إيمان حقيقي من رجل لم يعد يذكرني الآن، أنني أستحق تجاوزَ سبع درجات كان من الممكن لها أن تعطلني عاما إضافيا، لكنه فعلها وقفز بي لأصل إلى العتبة التي طالما صُوِّرت لي على أنها باب المستقبل، إن اجتزتُها أمِنت، وإن تعثرتُ فيها شقيت: الثانوية العامة!

الثانوية العامة بالنسبة للأجانب كابوس عملاق يطأ صدورهم بجزمته، ولأنّ الجامعات لا تفتح أبوابها لغير السعوديين، إلا في حالاتٍ استثنائيةٍ جداً لا تكاد تذكر قياساً بالخريجين الأجانب الذين تلفظهم كراسي المدارس الثانوية، فثمة من يعود لبلده كي يضمن لأبنائه مقعدا جامعيا، ومنهم من تدبّر أموره المادية فلم يعد يعنيه سوى أن ينجح أبناؤه ليلحقهم بأي جامعة خاصة، ومنهم من يعوّل على تفوّق أبنائه ليضمنوا وسيلة تلحقهم بكرسي الجامعة، أي جامعة تشرع أحضانها للمتفوقين، وبالنسبة للفلسطينيين، فالأمر يتشابه في ناحية ويختلف في أخرى فليست كل البلدان تقبل دخول الفلسطينيين إليها ولو من أجل الدراسة، تتفق في هذه المسألة الدول العربية والأجنبية، فالفلسطيني الذي يحمل بين حاجبيه علامة لاجئ من المحتمل أن يكون مشروع إقامة طويلة في البلد التي يقصدها،

حيث لا بلد تناديه كي يعود بعد انتهاء دراسته، ولا تريد الدول سكاناً إضافيين تتورط فيهم، ناهيك عن كونهم من المسجلين دوليا باعتبارهم كائنات إضافية! إذاً، تظل الاحتمالات مفتوحة على كل الأبواب ولا يدري أحد أي باب هو الذي يمكن أن يُفتح له!

وبما أنني قضيتُ السنة السابقة في اللهو، فقد ظلت عائلتي تضع عبء هذا العام فوق رأسي، وتكرر أنني لن أفلح في الحصول على فرصة لمنحة جامعية. لقد عملت جاهدا خلال ذلك العام لأحظى بنسبة مرتفعة، وفرصة تؤهلني للدراسة الجامعية، وكنت مهتما أكثر بالعمل على ما أخطط له. كنت، رغم إصرار عائلتي على مستقبل آخر، أمنّي نفسي بالسفر لدراسة الموسيقى، التهمتُ كتبي لأوقات طويلة، ودرست كالمسعور لأحظى بهذه الفرصة، وانتبه الجميع للتغير الكبير الذي طرأ عليّ، وتقدمي الباهر في الدراسة، كان هذا حدثاً طبيعياً بالنسبة إلى عائلتي، فقد كانت حالتي توحي بعودة الأمور إلى نصابها، وهذا ما يفترضونه، أن أكون متفوِّقا، أما أنا فلا أريد إلا الوصول إلى معهد الموسيقى مهما كان الثمن!

حصلت على درجات عالية طوال فترة الفصل الدراسي الأول، واستعدتُ مركزي المتقدم في المدرسة، ولكن لأن شبح الثانوية يحوم فوق رأسي ويفزعني في الصحو، والنوم، وبين أسطر كتبي، وبين الوجبات، وفي حديث جانبيّ، فقد فقدت ثقتي بكل ما أنجزته طوال أشهر الفصل الدراسي الأول، وسهرت ثلاثة أيام متواصلة قبل الليلة الأولى للامتحانات، وذهبتُ الى الامتحان فاقداً تركيزي وطاقتي،

لأنام في أول اختبار معلناً هزيمتي أمام شبح الثانوية، وخسارتي لأربع عشرة نقطة مئوية دفعة واحدة وفي مادة واحدة! فعلى الرغم من معرفتي لأجوبة أسئلة المادة وسهولتها، قياسا بمعرفتي بها، إلا أنني وضعت رأسي ونمتُ تاركا ورقة الامتحان حتى نصف الساعة الأخيرة، حيث صحوت ولم يسعفني الوقت للإجابة كما ينبغي، وانخفض معدلي الدراسي بسببها إلى درجةٍ دنيا لا ترجى من ورائها فرصة جامعية ولا ما هو أدنى! أعرف أنني تجاوزت الأمر، لكنني لا أنسى البؤس الذي أصاب العائلة إثر حصولي على نتيجة الفصل الأول، لقد كان معدلي السيء صفعة في وجه الصبر الذي احتملته عائلتي، وكسراً غير عادي لما جبَلَت العائلة أحوالها على انتظاره، والإجازةُ التي حصلتُ عليها بعد عناء ليال مريرة، أصبحَت مليئةً بالدموع والصمت، وبأشياء أخرى لا أذكر منها إلا وجهي مندسّاً بين صفحات كتاب، أو أصابعي وهي تنقر الورق بالحبر، وانتقلتُ للفصل الدراسي الثاني بحماسة أقل، وزهد في التفوق، ولن يحفل هذا الفصل الدراسي بمفاجآت أو معجزات، لكنه يحمل لي ألماً جديداً: الطالب الذي يجلس إلى جواري منذ بداية العام الدراسي، من حضرموت اليمنية، أخبرني بلا مبالاة أنه حصل على الجنسية السعودية، كما كان يتوقع منذ بدء العام، وحين سألته بإلحاح عن الكيفية التي حصل عليها بها، قال إن أمه سعودية، وإنه قدّم أوراقه إلى وزارة الداخلية في الوقت المناسب ضمن الأنظمة المحددة لطلبها، من الواضح أنه لم يكن مبتهجاً فقد أخبرني أنه باستثناء خصوله على فرصة لدراسة مجانية في الجامعة فليس ثمّة دافع للفرح..! لقد كان فخوراً بجذوره الحضرمية، راضياً

عنها كما هم كل الحضارم، الذين غرس فيهم آباؤهم الشداد حساً شاهقاً تجاه مكوّنهم الأوّل، دون عصبياتٍ، ودون جحود، فهم في الوقت ذاته يحملون انتماءاتهم الجديدة مثل أوسمة استحقاق، ربحوها نتيجة ثمارهم التي تطرح في الأرض الجديدة، وهم في جدة، مثلهم في أبو ظبي، وسومطرة، ولندن. يبدو الحضارم على درجة من المرونة مكّنتهم من التكيف مع الحياة أينما وجدوا، فهم قادرون على أن يكونوا سعوديين وحضارم، وإماراتيين وحضارم، من دون أن يشوّش هذا على كينونتهم. فقيمة الفرد الحضرميّ عالية رغم عيشهم غالباً في مجتمعات أبوية، ويغلب النمط العائليّ على سكناهم وأعمالهم، وكيفية حياتهم، ومهما حمل الحضرميّ من جنسيات الأرض، فإن اسمه الأخير يظل مسبوقاً بالعلامة الفارقة التي تميزه! أما الذين لم يحصلوا على الجنسية السعودية منهم، فإنهم يظلون خاضعين لمظلة الأجانب، متأثرين بكل ما يتأثرون به: لماذا أحكي عن الحضارم من دون غيرهم؟!

لقد فتحت الحكاية جرحاً كامناً لست مدركاً لأبعاده، فحياتي التي أعيشها لا تتوقف عن دفعي باتجاه الأسئلة، هل أنا فلسطيني بولادتي؟! أم أنني أردنيّ بسبب جنسيتي التي أحملها؟! هل أنا سعودي بحكم حياتي التي عشتها وثيابي التي ألفتها؟ هل أنا بلا انتماء أصلا؟! هل ما زلت جاهلاً لا يجب عليه أن يعرف من هو وما ينبغي أن يكون عليه؟! كان هذا ورداً يومياً أتلوه في كل وقت، وكل ليلة قبل أن ألجأ إلى فراشي، كما كان حديثاً مشتركاً مع أصدقاء الدراسة الأجانب،

إن حياتنا المشتركة مع أقراننا السعوديين، شكّلت في دواخلنا عقدة نقص اسمها الجنسية، فكوننا لسنا سعوديين جعلنا في مهب التعاسة والإحباط، وكلٌّ منا له في هذه الجنسية شأن، فهناك من يبحث عن انتمائه، وهناك من يبحث عن الدراسة الجامعية، وآخر يرغب في الزواج بحبيبته السعودية التي لا يوافق أهلها على تزويجها لأجنبي، وهناك من يودّ أن يحصل على فرصة لممارسة أنشطة تجارية، وكثيراً ما كنا نستمع لأحلام بعضنا تتوسطها أمنيات مثل: آه لو أني سعوديّ! ولو كنت سعودياً لفعلتُ وصنعتُ! كل ما حولنا كان يساهم في تنمية هذا النقص، فوسائل الإعلام تتحدث يومياً عن وجوب تقليص أعداد الأجانب في السعودية، والكتّاب يتناولون في أعمدتهم الأزمات التي يسببها الوافدون في البلد وأثرهم السيء على التشكيلة الديموغرافية للدولة، والنوادي الرياضية التي لا تستقطب إلا السعوديين تجبر أصحاب المواهب الفذة على اللعب في الحواري والشوارع فقط، ونظام الكفالة يكبّد الأجانب مبالغ طائلة كل عام لتجديد إقاماتهم، ويقيّدهم في أعمال محددة وأطر ضيقة لا يستطيعون معها الانتقال من مدينة إلى أخرى قبل الحصول على إذن الكفيل السعوديّ.. هذه ليست الصورة كلها، فهناك عناصر الدوريات الذين يمطروننا بالأسئلة حين يروننا نرتدي الزي السعودي، ويطابقون بين هوياتنا التي تقول إننا أجانب، وبين أشكالنا وألسنتنا التي لا تختلف عن أبناء البلد، كانت صورتنا ناقصة دائماً في أعيننا، وكنا نظن بأن عدم حملنا للجنسية هو السبب الذي يجرّ علينا كل أحمال الخيبة!

تخرجت من الثانوية العامة بنتيجة عادية، وكان الألم واضحا على أفراد العائلة، وجيراننا، وأصدقائنا، وفي الوقت الذي كنت أرى من حولي يحصلون على التهنئة باجتيازهم الثانوية العامة، كنت أنظر بحزن إلى أمي وهي باكية، تزورها الجارات والصديقات لمواساتها في مصابها الجلل! دون أن تكفّ إحداهن عن النظر إليّ وفي عينيها سؤال: لم فعلت هذا بهم؟ وأبي الذي لم يكن ينظر إليّ إلا بازدراءٍ حيناً، وبحزن حيناً آخر! ولم أكن لأعي هذا كله! كنت بلا دليل، ولم أكن أجيد الصَراخ حينها، وإلا لكنت صرخت في وجوههم بكل قوتي: ما الذي فعلته بكم لكي تشقّوني إلى نصفين..؟ تبا للثانوية العامة والجامعات والدراسة، تباً لكل شيء إن لم تتذكروا إلا أنفسكم!

(14)

استحالت أحلامي إلى ضفادع مزعجة تزورني كل ليلة، فمعهد الموسيقى صار فكرة مضحكة، والجامعة التي خطط أهلي لدخولي لها صارت مجردَ أمنية إضافية ضائعة سجلتها العائلة في دفاتر الأماني الضائعة، وواجه الشاب الذي حصل على نتيجة بائسة في الثانوية العامة حياته العملية بشكل مباشر، وعليه أن يتخذ لنفسه وسيلة يعمل من خلالها على ملء فراغه، وإحاطته بشكل يماثل امتدادات الفلسطينيين الغرباء، هل ثمة خيارات؟! لم يكن إلا العمل وجهة وحيدة، لكن من الذي يرغب بتوظيف شاب لا يحمل مؤهلات عليا، ولا يمتلك خبرات مناسبة، وليس بيده صنعة، أو حرفة، ولم يجرب قبل ذلك عناء العمل! لقد تغير العالم، ولم يعد بإمكان أجنبي لمجرّد كونه مختلفاً أن يحظى بفرصة، فالتقنية اخترقت العمل والمجتمع والحياة في مختلف أوجهها، وقطاع الأعمال صار يتطلب مهارات عالية، ومع هذا، فقد أجريتُ عشرات المقابلات الشخصية، وطفتُ بالشركات والمصانع لعلها تحمل لي وظيفة ولو هامشية أبدأ من خلالها حياة أخرى، الأمر ليس بهذه السهولة، إلا إذا وافقتُ على العرض الذي اقترحته أسرتي بأن أذهب إلى أحد الفلسطينيين الذين يمكنهم تدبّر وظيفة لي.. الفلسطينيون يقفزون في طريقي، مرة أخرى، مثل الكنغر!

في مكتبه الفاخر، طلب لي كوبا من القهوة بناء على رغبتي، وأبلغ

السكرتير رغبته بألا يقاطعه أحد فهو في اجتماع هام، كان صبحي كذابا، فلم يكن لدينا اجتماع أبدا، لكنه أراد أن يظهر لي اهتمامه بقدومي إليه، وسألني عن الأسرة وأوضاعها، قبل أن يبدي أسفاً كبيراً على نتيجتي المخيّبة التي حققتها في الثانوية العامة، وضحكنا سوياً بعدما سخر من نفسه، كونه ما زال يتحدث بلهجته الفلسطينية القروية، التي يقلب فيها أهالي القرى الحروف على غير موضعها، فيلفظون القاف كافاً، والكاف شيناً، ورغم ذلك فإنه يتبوأ منصب المدير العام لمجموعة من الشركات الكبرى في السعودية، وبعد أن طمأنته على الأحوال ورغبتي في الحصول على وظيفة أبدى ترحيبا كبيراً بالمساعدة والبحث عن عمل جيد، قائلاً: أنت تستحق هذا، رغم أنني لم أفطنْ بعد لنوع العمل الذي يناسبك، كما لم يفطن في يوم من الأيام إلى أن حياته ستنقلب رأسا على عقب بعد أن يأتي إلى السعودية ويعمل بها!

ولد صبحي صائب في قرية فلسطينية غير واضحة على الخريطة المحتلة، ولا يكاد يعرفها الفلسطينيون حين تُذْكر، عاش حياة ريفية مثالية: سكن بيتا صخريا متواضعا، وامتلأت حياته بصخب إخوته الكثيرين، وكان يشهد أباه وهو يضرب أمه وأخواته البنات لأتفه الأسباب، ويرتعد بحضرته من دون سبب مفهوم أيضا..! طاف بأغنامه الحقول المحيطة بقريته، وساعد ساكني القرية في شؤونهم اليومية البسيطة: يحمل على ظهره كيس الدقيق لإحدى الأرامل، ويساعد في نقل المحاصيل أثناء مواسم الحصاد، ويبيع محصول البطيخ على قارعة الطريق في الصيف، وربما وجد وقتا ليلعب قليلا

مع الفتية قبل أن يحل المساء ويعود إلى بيته وينام في مكانه الضيق وسط جبال الأجساد المصطفّة.

يقسم صبحي أنه سمع أنّات أمهِ، وأبوه يعتليها، أكثر مما سمع أنين زوجته! كان بيتهم مكونا من حجرة واحدة فيها سرير واحد ينام عليه أبواه، ويتزاحم الأخوة على النوم أرضا كيفما اتفق. يقول إنه لم يكن صاحب طموحات أو أحلام، لكنّ حياته سارت من دون أن يخطط لها، فلم يكن مجتهدا حين التحق بالمدرسة، ولم تكن ظروف الاحتلال تسمح بالتفكير في مستقبل جيد لفلسطينيي الداخل، لكنه رغم ذلك أحرز نصيبا جيدا من الدرجات، جعل أباه يقرر إرساله لمواصلة الدراسة في الأردنّ، متكفلاً بالدراسة والسكن، وعلى صبحي أن يتدبر شؤون طعامه وشرابه، وهذا ما حدث..

أربع سنوات قضاها طالبا في كلية إدارة الأعمال، وهو لا يعرف أي مستقبل ينتظره، كانت حياة شاقة ومليئة بالتعاسة، فما بين الدراسة والعمل وتحصيل لقمة العيش، ذاق أنواع المرارة، وعملَ في كل ما يمكنه أن يؤمّن له لقمته. بالكاد يحصل على ما يكفي لتستقيم حياته على حافة الآدمية: الطعام القليل والماء، لا رفاهية، لا مصروفات إضافية، لا يدخّن مثل بقية زملائه، ولا يلبس إلا الملابس نفسها التي يشتريها مرتين كل موسم: مرة ملابس الصيف، وأخرى إذا حل الشتاء ونخرت عظامه برودة عمّان الجافة!

حكى لي بلهجة الحاقد على تلك الأيام: مرّت أيامٌ لم أكن أجد فيها لقمة تسند جسدي، كنت أزور الأصدقاء في أوقات الطعام، علّني

أصادف ما ينعش شراييني ووجهي النحيل، لكن صدقني ليست اللعنة لعنة الجوع فقط، ولا ماء الحياء الذي كنت أريقه لأجد هذا الطعام، هناك لعنة البرد حينما لا تجد ثمن الزيت الذي تملأ به موقدك لتحصل على الدفء، ولعنة صاحب المنزل الذي يهددني بالطرد كلما تأخرت نقود والدي عن الوصول في موعدها، والسباب الذي أسمعه لأنني فلسطينيّ ولا يجدر بي إلا أن أكون مشردا أو لاجئا، ولعنة الملابس التي لا تستطيع أن تبدلها فتسمع باستمرار السخريةَ من قمصانك البنية وبنطلوناتك الرمادية المقلّمة لأنك لا تملك غيرها، ولعنة أن تبحث عن عمل فلا يقبل بك أصحابه بعد أن يعرفوا أنك طالب فلسطينيّ، وكأنك هبطت من كوكب آخر لتأخذ ما هو مستحق لغيرك! لقد عملتُ في كل مهنة يمكنها أن تخطر ببالك: كنتُ عامل نظافة في حانةٍ تكتظ كل ليلة بالمخمورين الذين يعرِّضونك للإهانة لمجرد كونك فلسطينيا، ولا تستغرب إن قلتُ لك إن أكثرهم فلسطينيون، إنهم، وهم أرباب النعمة والمال، لا يقبلون أن يجدوا من بني جلدتهم من يكون عاملا يمسح قاذوراتهم ويلتقط قطعة من اللحم في طبق أحدهم من دون أن ينتبه! في مثل الوضع الذي كنتُ أعيشه لم أكن أملك العديد من الخيارات التي تجعلني أرفض عملاً كهذا. ولا تسألني عن مبادئي وتنشئتي القروية، ولا تسلني عن العيب والخجل، فحين تكون على حافة الجوع سبعة أيام فإنك سوف تأكل كالكلب ما تحمله لك حاويات القمامة، وأكثر من ذلك: لن ترفض دعوة عجوز شمطاء تقف على شباك منزلها آخر الليل تصطاد اليافعين مقابل أن تنقدك خمس دنانير وأنت تدير لها ظهرك وتستقبل الشوارع مرة أخرى!

أنتَ لم تجرب أن يطردك صاحب المنزل الذي تستأجره بعد أن ملّ وعودك بالسداد عندما تصل نقود والدك، ثم يحجز ملابسك القليلة وكتبك الجامعية حتى تدفع له مستحقاته، فتطرق أبواب الأصدقاء واحدا تلو واحد تحكي لهم ما أنت عليه من الضيق، من دون أن يبادر أحدهم إلى القول: يمكنك أن تنام عندي الليلة، فتستأذن بالخروج تجد من يقول لك هذه الكلمة، وحين يتأخر الوقت ولا تجد من يستقبلك، تمددُ جسدك في عراء الحدائق العامة قبل أن تلقي الشرطة القبض عليك بتهمة التشرد، وعبثا تحاول إقناعهم بكونك طالبا جامعيا، وإنسانا على قدر من الثقافة والاحترام، وأن تشرّدك هذا ليس سوى ظرف طارئ. وحين يهم أحدهم بالإفراج عنك، يأخذ هويتك لإنهاء إجراءات الإفراج، ويقرأ في الهوية تهمتك الكبرى: فلسطيني، فيضحك ساخراً: حيوانٌ آخر،، أعيدوه إلى الزنزانة!

بعد أن أخرجته الشرطة بخطاب ضمان من إدارة الجامعة، حاولَ البحث عن عمل، أي عمل يكفي ليعيش بلا مزيد من الإهانات، ثم استطاع بعد عناء كبير أن يقنع أحد الفلسطينيين ممن يمتلكون محلا للملابس في عمّان، أن يأخذ منه شيئا من بضاعته ليبيعها مقابل نسبة بسيطة من الربح، وبدعوى القلق وعدم الثقة، فقد منحه دزينةً من الجوارب، وأخبره أنه إن نجح في بيعها فإنه سيمده بالمزيد منها، وكان أن عمل صبحي بائعاً جوالاً للجوارب أشهرا طويلة، يعرضها على أصحاب المحلات، والعابرين في الطرق، ويقف فوق رصيف أحد الأسواق، يروّجها للمارة. وكم مرة هرب من سياط أجهزة البلدية التي تحظر الباعة الجوالين، وكم مرة نفذ بجلده من رجال الشرطة

الذين يلاحقون كل من يشكّون بتشرده، وكم مرة التجأ إلى أحد المساجد أو الشوارع الخلفية يختبئ فيها قبل أن يتمكن من العودة إلى ما كان عليه قبل أن تنتهي سنواته الدراسية الأربع، ويقرر أن يعيد التفكير في مستقبله!

بينما كان يقف في صباح ربيعي خفيف أمام إحدى البقالات متصفحا الجرائد، شاهد إعلانا لشركة لبنانية تطلب موظفين في بيروت، سارع على الفور بإرسال أوراقه إليها، وخلال أسبوع كانت الشركة وافقت على طلبه واستدعته لمباشرة العمل، وكان ذلك آخر ما توقعه، أن يغادر عمّان متوجها إلى بيروت بكل ما تحمله خيالاته عنها، لقد ظنّها فرصة مناسبة لبدء حياة جديدة، لكن هيهات، إذ إنّ تهمته الكبرى لم تسهّل له عمله بقدر ما وقفت أمامه عائقاً، فلم يتمكن من الصمود في ظل الأوضاع السياسية المترديّة، وقد شعر من دون أن يبلغه أحد، أنه غير مرحّب به، فما كان منه إلا أن غادر بيروت بعد أقل من ستة أشهر، إلى وجهة مختلفةٍ هذه المرة: سلطنة عُمان، الخليجُ الناشئ وما يحمله من الفرص والهبات الدنيوية كان محطته الثانية، ورغم الإغراءات المادية التي توفرت له، قياساً بحياته البائسة في عمّان، إلا أنه لم يتأقلم البتة مع أجوائها، وقرر بانتهاء شهره الثالث أن يعود إلى عمّان، وهو يفكر هذه المرة أن يرجع إلى قريته الفلسطينية، غير آملٍ في بغيةٍ سوى الاستقرار وإنهاء دوامة التعب، لكنّ أقدار الفلسطينيين وفرصهم أيضاً لا تتوقف، إذ يخبره أحد زملائه من أيامَ الدراسة أنه فاز بفرصة للعمل في السعودية، وأن الشركة ذاتها لديها المزيد من الفرص، قال لي صبحي:

«رغم أنني قررت العودة إلى فلسطين، لكنني لا أذكر السبب الذي جعلني أوافق من دون تردد على الذهاب إلى السعودية، كان ذلك في بداية الثمانينيات، لم يكن العرض الماديّ مغريا جدا، لكنه كان بالنسبة لي أفضل من العودة صفر اليدين، ولم أكن قد تزوجت بعد، وليس عندي التزامات من أي نوع. قلتُ إنها قد تكون مغامرة ناجحة، ثمّ... ثم حدث ما لم يكن يخطر لي ولا لعقلي أبدا: بعد أن أثبتُّ جدارتي بالعمل الموكل إليّ خلال العامين الأوّلين من عملي في جدة، قامت الشركة بترقيتي إلى مساعد للمدير العام، الذي قُبض عليه بعد أشهر قليلة متهماً باختلاس عدد من ملايين الريالات، لكنني أذكر تلك اللحظة التي جمعتني بمجلس الإدارة، واتخاذهم قراراً بتعييني مديرا عاماً للشركة! هكذا وبلا أي مقدمات أصبحت في أعلى رتبة وظيفية، وارتفع راتبي الشهري من ألفيْ ريال إلى اثني عشر ألفاً خلال أقل من عامين، لم أكن لأحلم بها لو فلحتُ أرض أبي خمسين مرة في الموسم!»

قالها وابتسم، ثم دعاني إلى تناول العشاء في مطعم اختاره لأنه غير شعبي، فهو لا يحب الإزعاج ولا الناس العاديين، لاحظَ أنني أراقبه باهتمام ونحن نتناول العشاء، فرغم أنه لا يتناول وجباته إلا في المطاعم الفاخرة جدا، والباهظة غالباً، ورغم بذلته الأنيقة التي تجاوز قيمتها عشرة آلاف ريال، واستخدامه لأدق قواعد النخبة في تناول طعامه، وهو يمسح فمه بمنديل قماش بين لقمة وأخرى، إلا أنه يأكل كما لو كان ضبعاً تم الإفراج عنه بعد شهر من التجويع، قال لي:

لا تستغرب، أعرف أنني همجيّ في هذا، لكنني أدفع كل هذه النقود لآكل ما أريد وكيفما أريده، كُلْ قبل أن آتي على وجبتك، ويضحك بصخبٍ كما لو كان يشاهد فيلما كوميديا!

بعد فترة بسيطة استطاع أن يجمع مبلغا لا بأس به من المال، مكّنه من تحسين أوضاعه، وتزوج بامرأة عادية، على الرغم من قدرته على الزواج بامرأة أكثر جمالاً وأرفع حسباً ونَسباً، لكنه اختارها عاديةً لأسبابه الخاصة كما يقول: حين أكون متزوجا بامرأة جميلة، وسيدة مجتمع يشهد لها الجميع بأفضليتها، فإن خيانتي لها لن تكون مبررة، لكنّ القِرْدَةَ التي في بيتي مدعاةٌ للشفقة، أستطيع أن أخونها وأخبر العالم كله بذلك، ولن أجد منهم سوى المساندة والدعاء لي بالتوفيق في المزيد من الخيانات!

مذ أثرى صبحي وهو لا يهتم إلا بأربعة أشياء، المال والطعام والنساء والأناقة، لا يكاد يمر يوم من دون أن يشتري بذلة جديدة، أو ربطة عنق، ويقسم من يعرفه أنه لا يرتدي في المساء ما ارتداه في الصباح من شدة بذخه، ولا يمرّ يوم لا تكون له فيه مغامرة نسائية جديدة، وبالتأكيد: لا تمر لحظة من دون أن يعقد صفقة جديدة يضيف فيها إلى رصيده المزيد من الأموال!

إن حجم الثراء الذي يتمتع به لا يمكن أن تصنعه اثنا عشر ألف ريال كل شهر، فهو يمتلك ثلاث سيارات فخمة، ويسكن في إحدى البنايات الضخمة مستقلا بأحد طوابقها، ويمتلك عدة عقارات، ونمط الحياة الذي يعيشه يكلِّفه أكثر من ذلك بكثير! لكنه يعترف بلا قلق أنه لولا

الصفقات الجانبية لما تمكّن من أن يعيش هذه الحياة المليئة بالنساء والرفاهية، فهو يعرف كيف يدير كل علاقة وكل معرفة جديدة. قال لي إنه قد يفتعل خلافا في بعض الأحيان مع إحدى الشركات كي يتمكن من الوصول إلى أكبر القائمين عليها، ثم لا تلبث أن تمر أيام قبل أن يكون أقنعه بصفقة ما، فهو يعمل في كل شيء يمكن أن يضيف المال إلى رصيده، محافظاً في الوقت نفسه على منصبه الوظيفي. يقول: أموال الراتب الشهري متروكة في حساب بنكي ينمو دون أن تمتد له يدي، أما بقية أموالي فإنني أتمتع بما يحلو لي منها، ولا أخفيك أنني أوزّعها بنسب معيّنة: جزء لمصروف بيتي وعيالي، جزء منها لطعامي فقط، جزء منها أساعد به الفلسطينيين الذين يستحقون العون، وجزء منها أخصصه لسهراتي مع العاهرات!

يقول لنا في جلسة إفطار صباحية، مع بعض التجار الفلسطينيين الذين عرّفني إليهم، بعد أن سأله أحدهم عن سبب تعلّقه المُبَالَغ فيه بالنساء: لقد كنا ريفيين محرومين من النساء، لم نكن نختلط بهم إلا في حدود الأعراف الريفية، ولم نكن نملك سوى تمثيل الاحترام ونفوسنا تتشقق للمس كفّ امرأة! لم يكن أمامنا إلا مؤخرات الأولاد والعادة السرية، وأنا كنت أملُّ الطريقتين، وأبحث عن حرارة الأفخاذ! يقولها وهو يضحك مثل عفريت من قرية سحرية!

(15)

لم تقدم القضية الفلسطينية إلا باعتبارها قضية أمة، وقضية شعب، وظلت قضية الفرد الفلسطيني في الأرض المحتلة والمنافي المتعددة أزمةً مغيّبة، وإنسانيته محشورةً وسط مصائر الآلاف من مماثليه، فحين يقدم قضيته يتورط الفلسطيني بكينونته وذاته، ويتحدث باسم شعب كامل مشتت مجتمع في اسم، هذه أزمة لم ينجُ منها الساسة ولا المفكرون ولا عاملو المصانع ولا الشعراء والفنانون حتى!

وكانت أزمتي الفردية عملاً أصقل به حياتي، فلم يتمخّض بحثي النشط عن الحصول على شيء، ولم تفلح محاولاتي اليومية لإيجاد فرصة، وكان أن صادفت جاراً لنا من الرياض، يمتلك بيتا في جدة ولا يزوره إلا عدة مرات كل عام، تعرفتُ إليه أثناء دراستي الثانوية، أزوره بين وقتٍ وآخر للاستئناس برأيه، ولأنه كان أباً صديقاً وصادقاً، منحه الزمن حكمةً، واستطاع هو الحفاظ على شباب روحه إلى الأبد، وبعد أن فضفضتُ له بتعبي، اقترح تجربة جديدة ما كان لها أن تخطر ببالي: إذا صار المكان ضيقا لم لا تستبدله! وأيّ مكان يمكنني استبدال جدة به؟! كانت الرياض هي الاقتراح البديل، العاصمة التي لا أعرفها إلا في النشرة الإخبارية وصور الكتب. رمى اقتراحه مثل قنبلة وتكفّل لي بموضع إقامة مناسب، إذا وجدتُ فرصةً للعمل فيها!! وكان أن حزمت أمتعتي إلى الرياض، رغم المعارضة الشديدة للأسرة التي

تظن أن ما مرّ بنا من الغربة ما يكفي، لكنني ذهبتُ آملا في العثور على فرصة أفضل من تلك المتاحة في جدة، سكنت بيت جارنا، وبدأت رحلة البحث عن حياة..

بعد أشهر انتظرتها، لا بد للتعب أن يُراكم نتيجةً ما، حصلت على وظيفة صغيرة، وبعد سلسلة معقدة من الإجراءات الروتينية والرسمية، التقيتُ مالك الشركة التي عملتُ بها، والذي كان يدير امبراطورية ضخمة من المال والرجال قوامها أكثر من ألف موظف، وأكثر من مائتين وخمسين منفذاً للبيع، كان طلبه مقابلتي أمراً محيراً: ما الفراغ الذي يعيشه هذا الرجل ليطلب لقاء شخص سيعمل بائعاً في أحد معارضه! قيل لي إن اللقاء لن يتجاوز عشر دقائق، وحين سألت عن شخصية من سألتقيه، قال لي أحد الموظفين إنه شخص لطيف هادئ الطبع، ولا أدري ما الذي جعلني أصرّ يومها ألا أرتدي زياً رسمياً. في الثالثة عصراً كنت أجلس في مكتبه الأنيق، وامتد لقائي به أكثر من ساعتين، سألني عن أشياء كثيرة لا علاقة لها بالعمل، سألني عن حياتي الشخصية، أهلي، أصدقائي، علاقاتي، لم يسألني أبداً عن العمل، خرجت من مكتبه إلى إدارة الموارد البشرية التي وجهتني لمباشرة العمل في جدة، لكنني وقد قررت البقاء في الرياض، طلبتُ إليهم أن أباشر العمل فيها، ووسط دهشة الإدارة وافقوا على طلبي لأن أحداً من سكان جدة لم يسبق له أن طلب العمل في الرياض، وهكذا كان..

شارع العُليّا الفخم، مركز النمر التجاري. أول موقع أباشر فيه

العمل، كانت الشركة تبيع ألعاب الأطفال، وتوظِفُ لأجل ذلك قليلي الخبرة من الباعة الجدد، وتسعى إلى تدريبهم وتطويرهم للاستفادة منهم إلى أقصى حدٍّ ممكن. لقد كانت أكبر مفاجأة لي أن فريق العمل البالغ ثلاثين شخصا في منطقة الرياض لا يضم بينه أي موظف سعوديّ! لقد ترافقت بداية عملي مع الحديث عن توظيف السعوديين في مواقع عملٍ مباشرة مع الجمهور، لذلك، ولأنني السعوديّ كما اصطلح الزملاء العربُ على تسميتي، فإنني لم أجد أي دعمٍ أو مساندة، فما دمت أحمل لكنةً تختلف عما يحب فريق العمل سماعه، وما دامت طباعي لا تتوافق مع طباعهم، فإنني أحصل على أسوأ أنواع المعاملة، ويتفق المسؤولون في خمسة منافذ بيع على دفعي لترك العمل، بتسليمي مهاماً متراكمة طوال عشر ساعات كل يوم، ودفعي إلى تنظيف المخازن والمستودعات طوال الشهر الأول، ومنعي من إبداء الرأي أو التدخل في ما يخص العمل. وكنت أقبل بما أحصل عليه لجهلي بما يحق لي، ولتمسكي بفرصة أن أحقق نجاحاً يضمن لي حياة كريمةً. فكوني ما زلتُ عديم الخبرة لا يتيح لي فرصاً وظيفية أخرى، ومن الضروري أن أبدأ العمل أياً كان حجم صعوبته، لكنني كنت شديد التذمر، وساخطاً إلى درجة لا تطاق. كنت أعتقد بإمكانية الحصول على فرصة أفضل، ولكنني لم أستطع أن أفضي بهذا الكلام إلا إلى الجار الكبير الذي ضحك كثيراً حينما أخبرته بما يحدث، قال إن الذين يرغبون بالحصول على فرصٍ أكبر لا بد وأن تكون بدايتهم في المخازن، تحت الأرض، حيث يغرسون هناك بذورهم، ثم يصعدون إلى الأعلى لكي يرى الآخرون ثمارهَم!

بمجرد أن استوعبت الأمر وتوقفت عن الشكوى والانفعال، وبدأتُ أعامل وظيفتي بحبٍ ورغبة في النجاح، اختلفتْ الأمور كلها، صرت أستمتع بالعمل في المخازن، وأطلب إلى المسؤولين إرسالي لغرس البذور، وكانوا يسخرون من مصطلح غرس البذور باعتباره كلاماً فارغاً وتافهاً: هل عرف أولئك يوماً شكل الشجرة؟! هل عرفوا من أين بدأ شكل التفاحة يأخذ انحناءاته؟! لم يمر الوقت بطيئا قبل أن يعود من إجازته المدير التونسيّ، الذي رأى في عملي شيئاً مختلفاً عما يؤديه الموظفون الجدد، فطلب نقلي إلى الفرع الذي يديره، ويا لبهجة البقية بتخلصهم مني ومن فلسفتي وكلامي الذي لا يحبونه، فأقضي معه شهراً ثانياً يأخذ كل كلمة أقولها بأهمية، ويطلب مني تدوين اقتراحاتي وأفكاري لتطوير العمل، وكأنني كنت سداً وانفجرت، لم أحتفظ لنفسي بفكرة، ولم أهمل خاطرة تتعلق بالعمل من دون أن أكتبها له، وعلمني بالتالي كل حقوقي، وأوضح لي كيف تدار مهام العمل في الشركة، وعلمني ما لم أعلمه، وكما تحدث الأمور في عالم الأعمال، يطلب مدير المنطقة اجتماعاً بمسؤولي الفروع، ويبلغهم بأن فرعاً جديداً على وشك الافتتاح، في برج المملكة الشاهق هذه المرة، والمدير التونسيّ سيتولى إدارة هذا الفرع، ويطلب إليه اختيار أعضاء فريقه، نائباً وموظفين، فيرشحني لنيابته، ويختار خمسة أعضاء إضافيين ليكونوا في الفريق، وحين أبلغوه بأنهم على وشك فصلي من العمل بحجة عدم كفاءتي، كما كان المسؤولون قد اتفقوا، وضع بين يديهم الملف المفاجئ الذي جمعه لي، كل كلمة كتبتها، كل حرف اقترحته، وكل خطة لتطوير سير العمل، وبعد أن اطلع مدير المنطقة

على الملف، نظر إلى الآخرين وقال: لهذا لا تريدونه! ووافق على ترشيحي نائباً للمدير التونسيّ!

كانت فرحتنا بالاستعدادات الضخمة للافتتاح لا توازيها فرحة، ولم تعكرها إلا أنباء الحادي عشر من سبتمبر، الحدث الذي غير العالم، ووقفنا حياله بين المفاجأة والخوف. لقد كان الكثيرون ممن يعملون معي فرحين بتفجير مركز التجارة العالمي، وكنت لم أتخلص بعد من مشاعري شديدة التعاطف نحو ما هو عربي وإسلامي، ولم أكن قد أبصرت الجانب الإنساني للمسألة، فاحتفلتُ معهم، وتناولنا قالب حلوى اشتريناه خصيصا للاحتفال بالتفجير. هذه كانت ردة فعلي الأولى، قبل أن أعود إلى المنزل مساء ذلك اليوم، وأشاهد لأول مرة شريط الفيديو الذي بثته وكالات الأنباء! لن أنكر أنني لأيام عديدة لم أصدق أن بإمكان عمل مثل هذا أن يحدث، ومن لهذا العقل الفتيّ كي يقنعه بأن اصطدام طائرة بناطحة سحاب ليس فيلما جيد الإخراج؟! ومن الذي يقنعه ألا مخلوق في العالم تؤاتيه الجرأة على غرس مخرز في عين أمريكا؟! ومن يجعله يوافق على أن إنساناً باستطاعته قتل أكثر من ثلاثة آلاف شخص بضربة واحدة! لماذا كان الفلسطينيون الذين تحدثت إليهم فرحين بكل هذا؟ هل الوسواس الأميركي الذي يظنه الفلسطينيون آفة عنائهم هو السبب؟! هل يصدقون أي جعجعة تصدر على لسان أيّ مفوّه؟! هل صدّقوا أن ابن لادن وصدام حسين قادرون على تخليصهم من شتاتهم؟! لماذا قال لي أحمد الفلسطيني، المتزوج وأبو الطفلين، الذي عاش طوال حياته في المخيمات الفلسطينية في

لبنان، قبل أن يأتي إلى الرياض موظفا محترما في إحدى شركاتها ويعيش حياة جيدة، إنه يتمنى لو كان مع طاقم التفجير الذي أسقط برجَيْ أميركا؟! هل يشعر الفلسطيني بالقهر إلى الحد الذي يتمنى فيه ميتة على ارتفاع ألف متر بديلاً عن الحياة الجميلة التي يعيشها شخص مثل أحمد؟! لماذا قال جارنا الكبير الذي بدا لي أنه يحمل من الوعي أضعافا مضاعفة عمّا يمكن أن يحمله من هو في مثل عمري إنه شامت بغطرسة أميركا، وإن كان غير موافق على التضحية بهذه الأعداد البشرية، إلا أنه يرى الجانب الذي سيجعل العالم يتغير إثر هذه الضربة، وليته لم يكن صادقاً..!

قضيت في عملي هذا وقتاً طويلاً، أذهب كل صباح إلى برج المملكة ولا أعود إلى هدوء (عليشة) إلا في وقت متأخر، لأقضي ليلي سابحاً بيني كتبي والإنترنت، والسهر برفقة الموسيقى. إن أحداً لم يكن يسألني في اليوم التالي: هل نمتَ جيداً؟! هل تناولتَ عشاءك؟! لا أحد يعرف أن الذي يعمل أكثر من اثني عشرة ساعة متواصلة طوال اليوم لا ينام من ليلته إلا ساعتين أو ثلاث، وربما ذهب إلى عمله ملحِقاً يومه السابق بالذي يليه، هذه كانت حياتي في الرياض، وبالكاد كان يكفيها النصف الذي يبقى من راتبي الشهري الضئيل!

بيت الجار الذي أسكنه مضافة ضخمة تعج بالزائرين طوال اليوم، عشرات الأشخاص عرفتهم وعشت معهم في هذا البيت، كانوا لا يعدونني فلسطينيا إلا للمناداة، فكانوا يستخدمون: الفلسطيني راح،

الفلسطيني أقبل، وإذا أراد أحدهم ممازحتي وصفني بالفلسطيني الملعون، ينظرون لي باعتباري واحداً منهم، ولا أختلف عنهم في شيء، لساني، ثوبي، شماغي، يدي التي تخترق بادية المرقوق، مما دفع أحدهم إلى اقتراح اصطحابي إلى وزارة الداخلية للاستفسار حول حصولي على الجنسية، وذهبنا فعلاً، ولكن، ما الذي حدث هناك؟! بعد أن عدتُ منها قال لي أحد الظرفاء: لن تحصل على الجنسية ما دمت لا تملك ركبتين سوداوين وآثار جروح وندباتٍ قديمة في وجهك. لم يضحكني على كل حال، فمن بيده أن يخرجني من حالة الحزن التي أعيشها ما دمت لا أملك إلا فرصة واحدة ليس بيدي مفاتيح نجاحها؟ ومن الذي يقول لفلسطينيٍ يقضي حياته في السعودية إنه ليس لديه أملٍ في استبدال جنسيته الأردنية التي لا ينتمي لها بجنسيته التي يظن أنها ستثبت انتماءه؟! الجار الكبير وحده كان قادراً على هذا، بالسخرية من حلمي حيناً، وبالعتب أكثر الوقت على هكذا حلم!

بعد فترة من العمل في الرياض، وبسبب الشوق الذي شبّ في عائلتي، طلبتُ الانتقال إلى جدة مرة أخرى، كنت حزيناً على مغادرة الرياض كما لم أحزن من قبل، لكنني كنت ملتزماً تجاه أسرتي وعملي وكان عليّ العودة إلى جدة، بعد أن تغيّر بي ما لا يُحصى، لقد عشت في الرياض فترة من أروع أيام حياتي، وبرغم كل ما قيل لي عنها قبل زيارتي لها، إلا أن الأمر كان مختلفا معي، لقد أحببت هذه المدينة حباً شديداً، وشعرت بارتباط لا وصف له بيني وبينها، لقد أمضيتُ ساعات طويلة وأنا أجوبها ليلاً إما ماشياً على قدميّ، وإما طائفاً شوارعها

بالسيارة. لا تشبه الرياض مدينة أخرى، فهي رغم الإسمنت والمباني الشاهقة، تمنحني إغراءً لا أعرف سره، وتشعل بي رغبة في الحياة..!

أحببتُ كثيراً زيارة برّ الرياض، هذه الصحراء جنةٌ من الرمل، كنت في أيام البرد أرتدي ثوبي الصوفيّ، و(أتلطّم) بشماغي، وأمشي حافي القدمين، ولا أعود إلى موقع المخيّم إلا بعد أن أشعر أنني قد أفقد المكان وأتوه. كنت أمضي أوقاتاً جميلة، لقد كان هذا الامتداد الرملي يمنحني فسحة خصبة للتأمل والتفكير، كنت أختلي بنفسي لأطرح أسئلتي، وأصرخ بصوتٍ عالٍ، أنادي أسماء لا أعرفها، ولم أكن أنتظر إجابة. تشبه هذه الرمال العقل، إنها بلا حدود، كلما مشيت كلما زدت وَعياً، وفي الربيع، تتبدّل الرمال بخضرة برية، فاتنة، لا أستطيع أمامها إلا أن تأخذني الدهشة والإعجاب والغوص في الفتنة.

بكل ما فيها أحبها، برجالها الغاضبين، وشوارعها المكتظة، بنسائها الواثقات أكثر مما ينبغي بأنفسهن، بمراهقيها النزقين، بأطفالها الثرثارين، بإسمنتها، بسائقيها، بخَدَمها، بمشكلاتها، بالترقيم في شوارعها، بالجماعات التي تضرب أيدي الناس وسياراتهم وتخنق بهجتهم، بالمراكز التجارية الكثيرة، والمطاعم التي لا تنتهي، بمقاهيها التي تبعد عن الناس أكثر من سبعين كيلو متراً، بمطارها الذي يحتاج طائرة لتصل إليه، بأحيائها الشعبية، بجامعة البنات التي طالما أزعجني ازدحامها كل صباح، بقصورها، بالناس الذين لم أحبهم يوما، بالناس الذين أحببتهم كثيرا، بالجار الكبير، بعبد الله بن سلمان، وعبد الرحمن بن أحمد، بفهد، وابن موزان وقعيقع، بـ

تريكي الدرويش وابن عليوي المجنون، بالنخلات التي كنت ألقي تحية الصباح عليها، بعملي الطويل، بأمطارها، بحرارتها الجهنمية التي تثقب الوجوه، بالسوبر ماركت الذي كنت أشتري أغراضي منه، بالمستوصف الذي ظنني موظفوه أميراً فأحضروا كامل الطاقم الطبي ومدير المستوصف للوقوف على حالتي، بغرفتي الصغيرة، وأسرارها، بالزجاجات، والعطور النسائية، بالعباءات فوق الرؤوس، والمشالح الملكية، بالبراقع التي تخفي وجوه صاحباتها وعقول الناظرين إليها، بالنبرة المخملية لأصوات ساكناتها، بالجمر، والزنجبيل، والمواقد الشتوية، بالدخون ودهن العود، بلياليّ الطويلة عارياً في عليّة المنزل إلا من منشفة تلفّ خصري أمارس الصمت والتأمل، بالمطوّع الذي أوقفته ساعة وجمعت حوله الناس لأنه لم يجاوب على سؤالي وخاف كثيراً، بزيارتي الوحيدة إلى وزارة الداخلية للاستفسار عن كيفية حصولي على الجنسية، بالفزع الكبير من التلال، بالجسر المعلّق، بوادي لبن الضخم واستراحاته وارتفاعاته الشاهقة، ببدر بن عبد المحسن وما ينقش العصفور، بالرسائل، وَوين أحِبّ الليلة، بمركز المملكة، والفيصلية، والمكتبة الوطنية، وشارع المعذر، وطريق خريص، بالصور التي التقطتها، والخوف من 11 سبتمبر، بأسئلة: من وين انت؟ وأسئلة: (إنتْ سعودي؟) والإجابات المميّعة والكاذبة والمقنعة غالباً، بالعيون القصيمية التي تلمع ولا يعرفها غيري فأسألُ: هل أنت من هناك؟ فتتسع الحدقات بالدهشة! بالقهوة العربية وعذوق التمر، والصباحات التي لا تشبه الصباحات، بالقصائد التي كتبتها، بالزَكْرَتَة والنساء اللواتي عرفتهنّ، بالغضب الذي غضبته، والـ لا التي

تعلمتها، بعبد السلام الهليّلْ وجرائد الصباح، بجريدة الوطن التي لم يكن يقرأها سواي، بالكذب الكثير الذي سمعته، والصدق الوافر الذي مرّ بي، بالوفاء لكل شيء، والغدر بكل شيء، بصالح بن راجح وعبّود وابن سعيد الذي أحبني لأن زوجته فلسطينية، بالساعات التي تأخرتها عن العمل، بالأنوثة الطاغية التي ألمحها كلما ذُكِرت.. تلك هي الرياض التي أحبها.. الرياض التي لا يمتلكها أحد غيري..!

(16)

عدت إلى جدة، وعلمت أنّ جامعة عربية تفتح أبوابها لاستقبال المنتسبين، كانت خياراً مناسباً بجوار عملي، إضافة إلى أن تكاليفها مناسبة لما تسمح به طاقتي المادية، تبدو حياة مستقرةً لفلسطيني يعيش في السعودية أن يعمل ويدرس في الوقت ذاته، ما لم يقم أهله باتخاذ قرارات مفاجئة، كما قرر أهلي أن نسافر لقضاء الصيف، بعد انقطاع عامين، في فلسطين، إذ يتوجب علينا ذلك كي لا نفقد حق التمتع بالهوية الزرقاء التي تمنحها الحكومة الإسرائيلية لسكان القدس، ونظرا لأن مرور ثلاث سنوات من دون العودة إلى فلسطين يعني فقدانها، كان لزاماً أن أذهب مع عائلتي إلى هناك، لكي لا نفقد هذا الحق، الذي لا أعرفه ولم أسمع به إلا من خلال أبي وأمي!

قضينا ذلك الصيف في القدس، ولأن الأشياء تأتي دائما مخالفة للتوقعات، فقد فوجئنا بأننا لن نتمكن من الاحتفاظ بالهوية الزرقاء، وبالتالي سنفقد إمكانية العودة إلى القدس حال خروجنا، مما شكّل صدمة للعائلة، لكنني بكل هدوء قلت إنني أرغب بالعودة إلى السعودية، أنا لا أريد مكانا آخر لأعيش فيه غيرها، وإن كنت أحب فلسطين، لكنني لا أريد العيش فيها. بلا استثناء ثار الجميع عليّ، واعتبروا هذا انسلاخاً عن هويتيّ. حقيقة إنني حتى الآن أجهل أن تكون لي هوية غير تلك التي تشكلتْ في السعودية، وشخصية غير

التي عاشت فيها، إنني أعي ما الذي يعنيه ارتباط عائلتي بفلسطين، إنه باختصار يشبه ارتباطي بالسعودية، هم نشأوا في القدس، وأنا نشأت في جدة. هم درسوا في القدس، وأنا درست في جدة. هم لعبوا في حواري القدس، وأنا لعبت في حواري جدة. هم عانقوا روائح البهارات في أسواق القدس، وأنا مخنوق بحب الرطوبة التي تعانقني بها جدة! إنني لا أبرأ من فلسطينيّتي، فأنا أحب القدس، ميلادي، واسمي، والأوقات الصيفية التي قضيتها فيها، وقد أعود يوما لزيارتها، كأي إيطاليّ ولد في روما، ثم قضى حياته كلها أميركياً، كأي هنديّ عاش أعوامه الثلاثة الأولى في نيودلهي ثم أكمل حياته بريطانياً. أن تحكي بما لا تحمله إلا الأرض التي عشت فيها، أن تنظر حولك فتجد البحر والوجوه المتعددة، أن تضيع فلا تجد إلا الطرق التي تعودتها..! لقد عشتُ سعوديا وفلسطينيا في آن واحد، سعودياً بالحس العالي تجاه الأرض التي عشت مغروساً فيها، وفلسطينيا بما دسّه إزميل المسؤولية في جذوري تجاه كوني غريبا صاحبَ قضية، والغرباء لا بدّ أن يعتنوا جيداً بأنفسهم ليصبحوا ذوي شأن. ربما لم أكن لأحصل على الطريق التي أريدها لو لم أكن كذلك، وربما لو أنني فكّرت بشكل مغاير لكنت شخصاً آخر لا يعنيه من الحياة إلا اجترار روتينها، وحساب تعاقب الأيام من دون أن يكون لذلك معنى. إن حبي للأرض التي خلقت مني هذه الشخصية لا يقبل المزايدة أو المساومة، كما لن أقبل ولو للحظة تشكيكاً في جذري البعيد هناك، وإن كان ثمة من لا يرى الشمس في ظهيرة صيف جدّاوي، فإنه ضريرٌ بامتياز..!

لقد كنت مضطرا للنزول عند رغبة عائلتي في الانتظار، لقد حرصوا على الحفاظ على هويتهم، إن الهوية الزرقاء بالنسبة لهم ليست مجرد رمز وإثبات حالة، إنها الحبل السري الذي يربطهم بالحياة، وأدرك أيّ ألم عاشوه تلك الأيام، لكنهم لم يدركوا أن الحال مختلف معي، وأن ارتباطي بفلسطين لا يشبه ارتباطهم بها.

ثلاثة أشهر، تعرضت خلالها للعديد من نقاط التفتيش الإسرائيلية التي تستفسر عن هويتي، كنت معرّضا للسجن في أية لحظة، ومهدداً بالاعتقال لأنني لا أحمل ما يثبت هويتي الرسمية. وحدثَ أثناء حضوري إحدى مباريات كرة القدم في منطقة خاضعة للحكم الذاتي للسلطة الفلسطينية أنْ قام أحد الحاضرين بين الجمهور بقذف زجاجة إلى الملعب احتجاجاً على قرار حَكَم المباراة، لقد اعتقد أحد أفراد الشرطة المكلفين بإدارة الأمن في الملعب أنني الفاعل، وجّهَ بندقيته إليّ، طالباً مني الخضوع بتهمة الشغب، ولأنني لم أستشعر جرم ما ظنّه، فقد وقفت للتحدث معه، إلا أنه رفض سماعي بشدة وطلب مني رفع يدي فوق رأسي والسير منحنيا أمامه، هذا ليس مما يمكن أن أفعله، ارتفعت الجلبة وأحاط الناس بنا، فقمت بالخروج بين الجماهير، راغبا في مغادرة المكان لكنه لحق بي مهددا إياي باستخدام السلاح، وكان إصراري على الرفض يزيده إمعاناً في الغضب وتصويب سلاحه إليّ، ولولا تدخّل ضابط أعلى رتبةً بعد أن شرحت له الأمر لكان حدث ما لا يعلمه أحد. لم أنظر إلى المسألة باعتبارها تهديدا بالقتل، بقدر ما عاملتها كإشارةٍ تدلّني على الطريق، وتدفع السهم الذي يشير إلى

الخروج، وكان عليّ أن أخرج إلى الأبد، ثلاثة أشهر من الصبر على ما لا يطاق سماعه، وعلى الأصوات التي لا يفقهها قلبي، والكلمات التي لا تفهمها روحي، ماذا عن المرارة؟ هل شعرتُ بها؟ ربما لم أشعر بمثل ما أحس به منكوبو عام 48م الذين طُردوا من بيوتهم، وترابهم، ووطنهم، وربما لم أعايش تجربة مشابهة لما كانت عليه حال الذين هُجِّروا في عام 67م، وما عانوه من مرارة التغريبة وشوك النأي وسُكنى المخيمات، لكنني استطعت أن أتفهم أي شيء يعنيه الإقصاء بالقوة، وتقليص الخيارات المتاحة أمامك، فلا تصبح ذا سطوة حيال حياتك! لقد كانت هذه الأشهر موقفاً واضحاً اتخذَته الحياة تجاه انتمائي، وأشارت عليّ بالذهاب إلى جذوري المالحة.

ربما لم أفهم معنى أن يعيش أحدٌ بعيداً عن وطنه من دون أملٍ بالعودة إليه، ودون قدرة على أن يخرِج المفتاح المخبأ في خزانته، مفتاحَ داره القديمة التي تركها في فلسطين، التي ربما يسكنها غيره الآن، أو قامت مكانها مستوطنةٌ صهيونيةٌ، فأصبح صغار السِكْناجِ يلعبون في حديقتها، وصارت شجرة الزيتون التي غرسها بعرقه ويديه، المكانَ المفضّل كي تقيم فيها طالبات يهودياتٌ حفلهنّ الخيري كل موسم. ربما لم أكن متألماً بما يكفي لأشعر بمثل ما شعروا به، لكنني جربت الشوق إلى الأرض التي احتضنتني، وذقت لوعة البعد عنها. كانت كأس الأشهر الثلاثة غارقة بالوجع، والقلق، وربما الخوف من عدم العودة! وكان فيها من الإحباط ما كان كافياً لأقضي أياماً طويلةً من دون نوم، ومن دون أن أستسيغ كأس الماء الذي أشربه،

والوجوه التي أراها كل يومٍ ولا تشبه الوجوه، والطرقات التي لا تتفق مع خطواتي، والثياب التي لا تسر الناظرين إليّ ولا الناظر قبلهم إلى المرآة. ما زلت أشعر بالظمأ كلما تذكرت أنني كنت أصحو في الصباح وأنظر من النافذة فأرى الجبال الراقصةَ والبساتين الخضراء، وأتنشق دمَ الأعشاب المسفوح على كل وادٍ في سلوان. ما زلت أشعر بالظمأ، كلما تذكرت أنني كنت أصحو ولا تلفحني الرطوبة! وما زلتُ أسأل نفسي إن كان هناك معنىً لكوني ولدتُ مقدسياً يعيش في جدّة، ماذا لو كنتُ من مواليد الجليل وأحمل الجنسية الإسرائيلية؟! هل كان سيأتي أبي ليعمل في السعودية؟! أم أنني سأسافر ضمن بعثة ترسلها الدولة الإسرائيلية إلى أمريكا للاطلاع على فتوحاتهم العلمية في حقل التسليح؟! أم أنني سأكون فلاحاً أبني منزلي في أرض أبي بدون تصريح، وحين أضع آخر لبنة في السقف تأتي الجرافات الإسرائيلية لتهدمه فوق دماغي؟ لقد رأيت صورتي وأنا معلق في الهواء، رماديٌّ كل ما هو حولي، كل المشهد الذي أعيشه الآن كان ماثلاً بيني وبين المرأة السمراء، باستثناء أنها لم تكن موجودة على الشاشة، وحين سألتها لمَ لمْ تظهر لم تجاوب ولم تبتسم، بل تمددت على الأرض ووجهها للأسفل، وحفرت فيها بأسنانها تخترق التراب بلسانها الذي صار مجرافاً، كانت تأخذ ما تحفره وتضعه إلى جانبي، فيصير أكواماً خضراً يخرج من ثناياها الدودُ والنمل، يتشقق الدود عن فراشات بنيّة ترتدي زياً عسكريا، وتصطف على جانبي الحفرة الضخمة التي أحدثتها في الأرض، والنمل ينقل التراب خلفي إلى مكان لا أتمكن من رؤيته. وحيث صار بإمكاني أن أقف من دون أن أتحرك، كانت

المرأة السمراء في منتصف الحفرة معلقة في الهواء، واقفة مثل مسيحٍ بلا صليب، وكأنما صارت تخطب بصوتٍ جهوريٍّ مخيف: لك جذرٌ لكنه مقطوع، ولك جنسية تحملها ولا تحملك، ولك هوية منصوبة في دمك، وكأس لا تكسرها يد..!

(17)

اشتقتُ لجدة، لمطباتها، للإفريقيات اللائي يجمعن العلب الفارغة، للحي الشعبي الذي يسكنه أهلي، الحي الذي حملني بين يديه طفلاً، وسار إلى جنبي صبياً، وحررني حين صرتُ فتياً وقادراً على خوض الحياة!

اشتقت لكل شيء، رغم أن حياتي في السعودية لم تكن أقل إيلاماً، فحين تسمي أنظمة الأرض وقوانينها ابنها أجنبيا، يقضي حياته وهو يشعر أنه البطة السوداء، ولا يخفف الشعور المشترك مع آلاف الأجانب الذين هم مثلي من فداحة هذا الإحساس. فالشعور الجمعي هنا يأتي على صيغة المفرد، إذ ليس هناك أشكال عدة للأجنبيّ. ومهما اختلف لونه ولسانه أعجميا كان أم يعربيا، فهو يحظى باللقب الموحد للوافد المختلف، الوافد الغريب المرعب. يتشابه في هذا الفلسطيني الذي قضى أربعين سنة من حياته في السعودية، دارسا في مدارسها، عاملا فيها، متزوجاً ورباً لأسرته، مع من أتى البارحة بتأشيرة عمل لعقد مدته سنتان، كلاهما أعملت اللغة مبضعها في صفاته، فهو الوافد القادم ليشغل وظيفة ليست له، وهو الذي يُحتجز جواز سفره لدى كفيله لئلا يهرب في أية لحظة! وهو موضع الشك المحتمل لدى ارتكاب جريمة، وكذلك موضع الخطأ، مبدئيا، في

حادث سير عابر، الأجنبي، صاحب الثقافة المختلفة أياً كانت، يحمل ثقافته خلفه باعتبارها تهمة جاهزة، والاختلاف أياً كان مصدره وأيا كان حجم تنوعه، صار جريرة ملزمة للنعت بصفة الوافد، الصفة التي صارت بعبعا ضخما يحمل سكّينه خصيصا لتمزيق خصوصية المجتمع السعودي، هذه الخصوصية التي دشنها تلاقح غريب بين منتجات الطفرة الاقتصادية، وما آلت إليها حال الناس إثر انتشار تيار الصحوة الديني. ربما تشير اللغة إلى حالة مركبّة من سوء الفهم، فالقفزة الاقتصادية تشير ضمن مفاهيمها إلى انفتاح وتعددٍ في الموارد والنتائج جاءا بعد ضيق وانغلاق، وقيام الصحوة يشير إلى حالة من الغفلة عمّت مجتمعا بأكمله، ثمة ربط خاطئ بين نتائج كلا المسمَّيَيْن، الصحوة والطفرة، فالصحوة استخدمها مخترعوها للتحول إلى حالة من الذعر الاجتماعي، أدى إلى تكوم السعودي على نفسه، متخذا من الاختراع اللغوي الجديد (الخصوصية) درعاً واقية للحماية من كل ما يمس جوهر رعبه! فالنجاح الناشئ اقتصاديا للدولة، منح أبناءها قلقا كبيرا من التعرض لانتكاسات مضادة، وساهم تيار الصحوة في إيهام الناس أن هويتهم محل تهديد، وأن الوافدين إلى الدولة، الذين جاءوا لقطف ما يمكنهم من ثمار العملية التنموية، هم مصدر إرباكٍ لقيم وثقافة المجتمع السعودي، متناسين تعدد الهويات التي يحملها المجتمع أصلا، وناسخين المشارب الجغرافية التي يتحدر منها أبناء الجزيرة إلى وجه وحيد، رغم أن هناك فرقاً كبيراً بين في الموروث الثقافي والاجتماعي بين أهل القطيف مثلا، وبين سكان الحجاز.

كلاهما يحملان الهوية الوطنية السعودية، التي تتنوع تحتها التقاليد وتتعدد في ثيابها الهويات، والعادات، وما حملته كل منطقة جيلاً بعد جيل وصولا إلى راية عبدالعزيز المؤسس. إنني لا أحمّل التيار الصحوي كامل مسببات الانغلاق، حتى وإن كان دوره هو الأكبر، فالفزع الاجتماعي الذي راود الناس في حينها وقبولهم للمبادئ الجديدة، وانشغالهم بالكثير من أمور الحياة عن التفكير في حالة التعميم الثقافي للهوية الوطنية، والصمت الذي مارسته الحكومة تجاه العمل المنظم للتيار اعتقاداً منها بنبل أهدافه في حينها، بل والدعم اللامنقطع الذي قدمته الحكومة على جميع الأصعدة، كل هذه العوامل ساهمت في رسم ملامح جديدة للمجتمع السعودي، لا تشبه الملامح التي كان عليها قبل ذلك، وإن كنت لم أدرك تفاصيل تلك المرحلة، إلا أنني أقول ذلك وأنا أحد الذين اصطبغت وجوههم بملامح التيار الذي لم يترك مدرسة ولا مسجدا ولا بيتاً لم يدخله. لقد فكرتُ كثيراً في المعنى الذي يحمله اسم الوافد، إذ إنه غير مستخدم خارج السعودية بذات المعنى الرديء، وإن كنتُ أظن أن نشأته طالعةٌ من المكانة الجغرافية التي تتمتع بها الدولة، إذ يتحوّل الوافد إلى حرم الله المكيّ أولاً، وافداً إلى سوقها، ثم الأسواق المجاورة، ثم واحداً من سكانها مواطنا صار أو ظل مقيما، هذه نظرة بسيطة، تناسب تفسيري لما عشته ورأيته تحديداً في الحجاز، حيث أرى السعوديّ الذي حصل جدّه قبل خمسين عاما على الجنسية السعودية بشكل نظامي بعد أن جاء وافداً لأداء فريضة الحج، ما زال يسمّى بطرش

البحر، وبقايا الحجاج، في إشارة تنتقص من كفاءته الوطنية وجدارته باستحقاق أن يكون سعوديا! هل يتمنى هذا السعودي أن يكون بدوياً! لكي يتفاخر بأصوله القبلية، أم أنه سعيد بانتمائه إلى ثقافة وافدة إلى الجزيرة العربية؟! لماذا يعتقد بعض أبناء القبائل أن الهوية السعودية تخصهم وحدهم، وأن الجنسية السعودية التي يحملونها لا تكافئ الجنسية التي يحملها القادمون من أقاصي آسيا والشام وأواسط إفريقيا؟! رغم أن الدولة السعودية حين قامت تحت شعار معلن، لم يكن ضمن مشروع بنائها أن تحمل طابعاً بدوياً، بل على العكس، إذ تمّ إقرار الهَجر، وتوطين أبناء البادية.

هذا جانب واحد في الاختلاف السعودي، وثمة الكثير من الاختلافات، فالجنوبي الذي يشار إليه بالرمز صفر سبعة، وهي دلالة تشير إلى مفتاح المنطقة باعتباره أخيراً في قائمة الدولة، يحمل داخله اختلافاً في نوع وامتدادات تركيبته في سياق ربما يكون أكثر رحمة بين أبنائه من بقية مناطق المملكة، وهناك النجدي، والشرقيّ، وهناك الشيعي والسنيّ، وهناك الجازانيّ والإسماعيلي، وهناك الحجازي والشمالي، لقد أدت عملية توحيد الهوية، التي فرضها التيار الصحويّ، بالدين إلى طمس معالم الحياة الخاصة بكل منطقة، الحياة التي ظلت مغيّبة حتى انفجرت التقنية حاملة معها طيفا من الوحدة العالمية، لا يفرق بين أبنائه إلا بالمعرفة والعلم، والتقدم الذي تنجزه المجتمعات علمياً، واقتصادياً، وصناعياً، هذا المسار الذي أخذه مجرى الثورة المعلوماتية للمجتمعات الطبيعية. لكن، ولأن عملية تطوّر الهوية

الوطنية في السعودية لم تأخذ شكلها الطبيعي، فقد كان أن ثارت مسألة الهوية المناطقية والقبلية مرة أخرى باعتبارها مبعث اعتزاز بالمجد والتراث المفرط في غيبوبته، ذلك أن المجتمعات القلقة والخائفة، والتي لا تجد منجزاً حقيقياً لحاضرها، لا تجد أفضل من تاريخها، أياً كان، لإعادة طرحه من خلال أدوات التواصل الجديدة، فتتخلف بالتالي عن ركب المجتمعات المتقدمة، وتنشغل بتوافه الحياة وصغائرها عن مجاراة السباق الذي يقوده العالم كله نحو حياة حديثة. ومرة أخرى، تطفر الخلافات العرقية والقبائلية إلى الواجهة، لينشغل أبناء المجتمع الواحد بتهشيم ذواتهم بدلاً من الانشغال بتقديم مجتمعهم إلى العالم!

بعد هذا كله، هل يبقى للأجنبي ما يؤلمه على نحو خاص؟ الفلسطينيِّ الذي يعيش الصراعات ذاتها، والخلافات ذاتها، ويتعرض للمسخ ذاته، وللتهميش والمزايدة في أحسن الأحوال، إن لم يكن المناداة بخروجه، ويجد نفسه ذا هوية مختلفة، هوية تنتمي إلى المكان لكنها ليست محسوبة على انتماءٍ داخليٍّ فيه، ولا تعترف بانتمائه إلى الأرض، ولا إلى الناس الذين يحكي بلسانهم، ولا يتقن إلا ما تلقّاه في مجتمعهم، أي ألمٍ ستكون له قيمة حقيقية لدى غيره؟! ومن الذي سيدرك حجم المعاناة التي يعيشها لكي يشعر أنه يمارس إنسانيته بشكل طبيعي؟! هوية إنسانية متفردة؟! هل هذا التفرد ضروري؟! ولماذا يشعر أنه متفرد أصلا؟! أم أنها الكذبة التي يصدقها عن كونه متميزاً ولا يشبه أحداً؟! فلا الانقياد إلى جهة ما يريده، ولا ثمة من

يريده أن يقف في هذه البقعة وحيداً، ومحسوبا عليهم في الوقت ذاته، إنه شعور مضاعف باستلاب الهوية، ما بين تجرّده من ثقافته الأصلية التي وفد منها، وبالتالي ابتعاده عن امتدادٍ ينقطع بالمكان الجديد، وما بين الحياة التي يحياها متشرباً ثقافتها بشكل مشوّه من دون أن يكون له منها نصيب ولا لانتمائه إليها أي معنى أو تأثير.

(18)

لم يكن قراري بالعودة إلى سعوديتي قابلا للجدال، ولم أكن لأقبل أي عرض للابتعاد عنها، ولكنني نزولا عند إلحاح عائلتي في محاولة الجمع بين رغبتي في العودة، ورغبتهم في الحفاظ على الهوية الزرقاء، وافقت على انتظار ما قد يفعله المحامون ورجال القانون الإسرائيليّ للاحتفاظ بحق المواطنة. وطوال ثلاثة أشهر قضيتها بين مكاتب المحامين وَوزارة الداخلية الإسرائيلية والمعارف وأقارب العائلة، فإنّ شيئا من هذا لم يبدّل الحال، وكان واجبا لتحقيق رغبة عائلتي أن أعيش في فلسطين، وهذا ما كان مستحيلا! ولأن الإجراءات الحكومية الإسرائيلية ليست يسيرة، فقد كان أن انتظرت أكثر من أسبوعين للحصول على إذن بالمغادرة، بعد أن شرحت حالتي القانونية لإحدى الموظفات بوزارة الداخلية، والتي ساعدتني في تسهيل الأمر، وبمجرد حصولي على تأشيرة الخروج، كدت أجنّ من الفرح، سأعود أخيراً إلى السعودية، لم أنتظر، وأخذت حقيبتي، وعائلتي معي، توجهت إلى جسر الأردن، المعبر الوحيد الذي ينقلني إلى الضفة المقابلة، فتواجهني مشكلة أخرى، ويتم إيقافي من قبل حرس الحدود الإسرائيلي للاستفسار عن كيفية حصولي على التأشيرة، وأقضي النهار بأكمله برفقة عائلتي في انتظار إذن الخروج، قبل أن تطرح الضابط الإسرائيلية خياراتها أمامي، وتبلغني أنني

إذا خرجتُ قد لا أعود! قبل أن تأتي المرأة السمراء إليّ، وتذكّرني بحياتي كلها، في الوقت الذي كنت أنتظر فيه تنفيذ قراري بالعودة إلى السعودية: هل كان هذا قدراً؟ وماذا عن المرأة السمراء التي أسلمتني لجوارحي مرة أخرى قبل أن تمضي وهي ترسم بقدميها السابحتين في الهواء سهماً باتجاه جدة، في الوقت الذي جاءت فيه الضابط الإسرائيلية لتمنحني ختم الخروج، وهي تنطق العربية بسلاسة: الحمدلله أنني ساعدتك!

هل كان لي أن أعيش هذا كله لو أنني عشتُ في فلسطين؟ أو حين ظننت أن بإمكاني انتزاع ما ليس لي لمجرد الالتصاق به؟ لقد طرحتُ هذه الأسئلة وأنا أتذكر كيف كنتُ في السابعة من عمري أبكي في الخفاء وأنا أشاهد مسلسلاً عن عز الدين القسام ولا أدري لماذا؟! وأتابع نشرة الأخبار فأرى مظاهرات الانتفاضة الأولى، والأجساد الصامتة مرفوعةً في جنازات احتفالية، فأرسم في كراسة المدرسة صوراً مماثلة لأعلقها على باب خزانتي، وأذكر بعد أن مزَّقت الرسم أنني وجدتُ أعلام الدول العربية مرصوفة على الكراسة، ومكتوب تحت العلم الذي أحفظه: فلسطين المحتلة، لم أدرك المعنى، ولم أجد علماً آخر يحمل ذات الصفة! وحين كبرتُ، صار لي إيمان آخر وَوطن معلَّق كالخنجر على الخريطة، وأرض لا تفارق ملوحتها شفتيّ، نخلة تنبت من قلبي، ويسّاقط البلح عنها مع كل دقة فيه، وثمة شجرة زيتون تعرّش في نسوغي، وتشيخ على تجاعيد أصابعي. دمي.. قنطرة تصل بحر جدة بعتبات القدس، كلما حل بي الظمأ

قطعت شرياناً لينفجر راويا ظمأ هذه المسافات! وما زلتُ أحمل ألم الأرض، إنه ألم يشبه اللحظة التي كنت أتابع فيها الشريط الإخباري، لأقرأ: الرئيس المصري ينعي إلى العالم وفاة الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات! ألمُ ألا يستطيع الفلسطينيون أن ينعوا رئيسهم إلى العالم، وأنّ الذي حمل فلسطين مثلما يحمل عقاله فوق كوفيته لا تستطيع فلسطين أن تحمل جثته إلى الشريط الإخباري! ألمُ أن الذي ظلّ حتى آخر قطرة حمراء في جسده قبل أن يتبدل لونها يحلم بالصلاة في القدس، تقام له جنازة عسكرية في القاهرة، قبل أن تبتلع أرض رام الله صندوقاً خشبياً اقترحه الرفاق لجثته، علّ التراب المقدسي يبتلعه يوماً..!

لم أكن بعد وصولي إلى جدة غاضباً من حياتي ومن كل ما حدث، لقد كنت مغموساً في حالة من الطمأنينة، أتلقى كل ما فيها بابتسامة واسعة، مثلما ابتسمت حين رأيت امرأةً سمراء تجمع العلب الفارغة بجانب حاويات القمامة، كانت ترتدي ملابس إفريقية ملونة، يبدو صدرها من خلف القميص ضخماً ومتهدّلا، وحين أطلت النظر فيها همهَمَت بلغة إفريقية غير مفهومة كلاماً لم أفهمه، وما زلت حتى الآن غير مدرك معانيه، لكنه يبدو لي مألوفاً رغم أنّ عقلي ينكره..!

معتز قطينة

الجنسيَة

بين جدّة والقدس، يعيش البطل التمزّق في الانتماء. هل ينتمي إلى جدّة حيث وُلد وعاش، أم إلى القدس التي ربّاه أهله على أنها وطنه؟ وما يزيد بؤس هذا التمزّق هو أنه غير مقبول لا هنا ولا هناك. الحكومة الإسرائيلية تسقط عنه حقّه في العيش في القدس لأنه مهاجر، فلا يستطيع العودة حتى لو شاء، وفي جدّة لا يستطيع الحصول على الجنسيّة ولا على حقوق العيش كمواطن حتى لو أختارها كوطن.

"ربما لم أفهم معنى أن يعيش الواحد بعيداً عن وطنه، من دون أمل بالعودة إليه. فلا يستطيع أن يُخرج المفتاح المخبّأ في خزانته، مفتاح داره التي تركها في فلسطين، والتي ربما يسكنها غيره الآن، أو صارت جزءاً من مستوطنة صهيونية، فأصبح صغار السكْناج يلعبون في حديقتها. وصارت شجرة الزيتون، التي غرسها ورعاها بعرقه ويديه، المكان المفضّل كي تقيم تحتها طالبات يهوديّات حفلهنّ الخيري كل موسم. ربما لم أكن متألّماً بما يكفي لأشعر بمثل ما شعر به أهلي، لكني جرّبت الحنين إلى الأرض التي احتضنتني وذقت لوعة البعد عنها. كانت كأس الأشهر الثلاثة مترعة بالوجع والقلق، وربما الخوف من عدم العودة"

لوحة الغلاف: كلي

ISBN 978-9938-886-09-2
9 789938 886092

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - القاهرة - تونس